موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

الثالوث

هل هو صفات الوجود والعقل والحياة؟

www.coptology.com

Coptology

ⲥⲁⲛⲱⲩ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

الثالوث

هل هو صفات الوجود والعقل والحياة؟

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١١

www.coptology.org

جدول المحتويات

القسم الأول **٣**
مصادر التعليم عن الثالوث في الشرق: ٣
مصادر التعليم عن الثالوث في الغرب: ٤
ما هي خطورة هذا الشرح؟ ٥
ما هي هرطقة سابليوس؟ ٩
لماذا هذا التعليم هو تعليم سابليوس؟ ١١
الأقنوم الواحد هو وجود وعقل وحياة: ١٨
الجوهر وهرطقة سابليوس: ١٩
إخلاءُ الابن هل هو إخلاءٌ للعقل الإلهي؟ ٢٢
صلوات الابن المتجسد ٢٣
مواعيد الآب المعلَنة في الابن ٢٤
الباركليت الذي سيرسله الآب ٢٧
تخصص الصفات يعني هدم الثالوث ٢٩
القسم الثاني تمايز الصفات يقضي على التوحيد والتثليث معاً **٣٢**
القسم الثالث توحيد جوهر اللاهوت هو توحيد المسيحية **٣٧**

القسم الأول

–١–

درج بعض الإكليروس على شرح الثالوث القدوس للشعب في عظات ومقالات صدرت منذ سبعينات القرن الماضي تصف الثالوث القدوس بأنه صفاتٌ في الله، فالآب هو الذات أو الوجود، والابن هو الكلمة أو العقل، والروح القدس هو الحياة. والدارج عند هؤلاء هو: أن الله واحد بالذات مثلث بالصفات، لأن الأقنوم هو صفة ذاتية، أو صفة جوهرية.

–٢–

هذا الشرح، لم نجده في كتابات آباء الكنيسة في الشرق والغرب معاً، ليس في القرون الخمسة الأولى فقط، بل في العشرة القرون الأولى، أي على مدى ألف سنة من تاريخ الكنيسة الشرقية والغربية.

مصادر التعليم عن الثالوث في الشرق هي[١]:

١– المقالات الأربع ضد أريوس للقديس أثناسيوس.

٢– رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس.

---

(١) نلفت نظر القارئ العزيز إلى أن المقالات الأربع ضد الأريوسيين تم ترجمتها إلى اللغة العربية ونشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة، وطبعت عدة طبعات. وكذلك الأمر بالنسبة لرسائل القديس أثناسيوس عن الروح القدس لسرابيون. كما قام الدكتور جورج حبيب بباوي بترجمة كتاب القديس أمبروسيوس عن الروح القدس ونشره مركز دراسات الآباء، وأيضاً كتاب القديس باسيليوس عن الروح القدس ونشرته مطرانية الغربية للأقباط الأرثوذكس عام ١٩٨١م. كما قامت رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط بترجمة الخطب اللاهوتية ٢٧ – ٣١ للقديس غريغوريوس اللاهوتي، وهي عن الثالوث وقامت بنشرها المكتبة البولسية ببيروت في عام ١٩٩٣. وأخيراً قام د. جورج عوض الباحث بمركز دراسات الآباء بالقاهرة بانجاز ترجمة عربية لكتاب الكنوز للقديس كيرلس الكبير، وقام المركز بنشرها في ٢٠١١. إضافةً إلى ذلك يتابع المركز نشر ترجمة كتاب القديس كيرلس الكبير حوار حول الثالوث، وهو مؤلف من سبعة حوارات، الأمر الذي يعني أن هناك كماً من المراجع لا يُستهان به باللغة العربية تحت يد القارئ تعد من المصادر الأساسية للتعليم عن الثالوث مما يسهل عملية مراجعة التعليم عن الثالوث في الشرق العربي.

٣– كتاب القديس كيرلس السكندري الكنز في الثالوث.

٤– كتاب القديس باسيليوس عن الروح القدس، وكتابه ضد آنوميوس.

٥– رسالة القديس باسيليوس الثانية إلى امفلوخيوس عن الفرق بين كلمة الجوهر وكلمة الأقنوم.

٦– كتاب القديس غريغوريوس الثيئولوغوس عن الثالوث والروح القدس.

مصادر التعليم عن الثالوث في الغرب:

فالكتاب الأول الذي يعتبر مرجعاً أساسياً هو كتاب القديس أُغسطينوس عن الثالوث وهو خلاصة كتابات القرون الخمسة الأولى؛ لأنه يحتوي على كل ما ذكره ترتليان، وايلاري (هيلاري)، وامبروسيوس، وماريوس فكتورينيوس، ثم الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الاكويني، وكتاب الثالوث للقديس ريتشارد الفكتوريني .. وبونافنتورا .. وغيرهم.

–٣–

ولأن هؤلاء الوعاظ لا يقدِّمون لنا تقليد الشرق أو الغرب ولا يشرحون الإيمان بالعودة إلى مصادر التعليم الأساسية التي قبلتها الكنيسة الجامعة في عصر المجامع المسكونية، أصبح من واجب كل مَن يعرف التقليد الكنسي أن يدافع عنه وأن يشرحه وأن يحذِّر الذين يحاولون الابتعاد عن التقليد الكنسي من العودة إلى الهرطقات القديمة وبشكل خاص هرطقة سابليوس التي سوف نشرحها بالتفصيل.

– ٤ –

ما هي خطورة هذا الشرح؟

أولاً: ينزع هذا الشرح عن الله "سره" الإلهي الذي يجعله أسمى من الكائنات، ويحول الله إلى مخلوق مثلنا تقوم حياته وأعماله على صفات سواء كانت ثلاثة أو أكثر .. وعدد الصفات لا يقدم ولا يؤخر، فالثابت في مقالات وكتابات هؤلاء، هو أن الله له ثلاث صفات ذاتية هي الآب والابن والروح القدس.

ثانياً: يقضي هذا الشرح على عقيدة التجسد؛ لأن الصفة لا تتجسد، وإنما الذي يتجسد هو الأقنوم أو الشخص.

ثالثاً: ينزع هذا الشرح الخلاص الذي قام به الثالوث؛ لأن الصفة لا تتجسد، ولا يمكن لصفة مهما كانت أن تصالح الإنسان مع الله، أو مع صفات الله.

رابعاً: يقضي هذا الشرح على عمل الروح القدس برمته في الخليقة، وفي الخلاص، وفي الأسرار الكنسية؛ لأن الصفة لا تحل ولا تسكن ولا تقدِّس المياه، ولا تنطق في الأنبياء .. فالصفة تابعة للموصوف وليس العكس.

خامساً: تسقط محبة الثالوث لنا. فالله محبة، ولأنه يحبنا لم يرسل صفةً من صفاته، وهي العقل أو الكلمة. وإرسال الصفة مع أنه مستحيل لأسباب سوف نذكرها، لا يمجِّد محبة الله؛ لأن الصفة هي غير الجوهر – حسب شرح هؤلاء – وبالتالي لم تصدر المحبة من جوهر وطبيعة الله، وإنما هي صفة من صفاته، أي الكلمة أو العقل أعلنت لنا محبة الله.

والحقيقة الظاهرة هي أن المحبة هي جوهر الله وطبيعته، وأن الله الذي اكتفى بإرسال صفة هو في الواقع أقل من الإنسان، فالإنسان إذا أحب، فهو يحب بكل كيانه، وإذا قام بعمل من الأعمال، انغمس فيه بكل كيانه، ولكن هنا نرى أن الله لم يرسل لنا مَن هو قائم معه في ذات الجوهر، بل أرسل لنا صفةً واحدةً من صفاته.

ويمكن للقارئ – في ضوء ما نقدمه هنا – أن يقوم بعملية تحليل لعلاقة الصفات الثلاثة بالجوهر وبالمحبة، ونحن نضمن له أنه سوف يتوصل إلى نتائج في غاية الخطورة، لم تكن لتخطر له على بال ...

ولكن تبقى الحقيقة الواضحة، وهي أن هذا التخبط مصدره الخلط بين كلمة "أقنوم" وكلمة "صفة"، وهو خلط لا دخل للقصور اللغوي سواء أكان عربياً أم قبطياً فيه، وإنما هو خلطٌ مصدره انسياب فكر الفلسفة اليونانية القديمة في مدارس اللاهوت التي نشأت بعد القرن السابع الميلادي؛ لأنه عندما استخدم فلاسفة الإسلام الترجمات العربية لأرسطو للهجوم على عقيدة الثالوث، رد عليهم العالم والفيلسوف السرياني "يحيى بن عدي" وغيره، مستخدمين فلسفة أرسطو أيضاً، فضاعت عقيدة الثالوث كما صاغها الآباء، وكسبت الكنيسة الشرقية الأرض الفلسفية، ولكنها خسرت الأرض الآبائية، وخسرت الليتورجيا والتقليد، بل وأصاب الحياة الروحية عقمٌ خطير سوف نشرحه بالتفصيل في الفصول القادمة.

لكن يكفي أن نسأل أنفسنا: ما هي علاقة المحبة بالصفات الذاتية: الوجود والعقل والحياة؟

الله محبة، وهذا هو جوهر الله حسب التعليم الرسولي، والمحبة تمارَس داخل الذات الإلهية. فالآب يحب الابن، والابن يحب الآب، وكذلك الروح القدس.

فكيف يمكننا أن نفهم المحبة الإلهية إذا كان الله هو الوجود والعقل والحياة؟

كيف يحب الوجود العقل؟ وكيف يحب العقل الوجود؟ وكيف يحب أو تحب الحياة؟

لكي يكون لدى الوجود محبة، فهو يحتاج إلى العقل .. هل المحبة غير عاقلة؟ فالآب الذي يصوره هؤلاء على أنه وجود، أو صفة ذاتية في الله، أو حتى ذات، هو في الحقيقة بلا محبة؛ لأن المحبة التي لا تفهم ولا تدرك ليست محبة بالمرة، ولا تليق بالإنسان نفسه، فما بالك بالله؟

والمحبة هي علاقة متبادلة، أي أنها كائنة بين طرفين أو أكثر، وقد أدرك هذه الحقيقة

القديس أوغسطينوس وأسهب في شرح المحبة في كتابه عن الثالوث .. ولكن إذا لم يكن لدى الآب محبة في ذاته عَجَزَ عن أن يحب الابن، ومن لا يملك قوة النظر لا يمكن أن يقال عنه إنه مبصر حتى وإن كان أحياناً يرى بعين الآخرين .. فالآب لا يمكن أن يحب الابن لأن الآب ليس له صفة العقل، والابن الذي هو عقل الله – وكما يقولون – يملك أن يحب الآب عقلياً، ولكن محبته تقف عند هذا الحد؛ لأن المحبة تحتاج إلى الحياة، والابن هو صفة العقل وليس صفة الحياة. أي أنه يحتاج إلى الحياة لكي يحب، فالعقل الذي بلا حياة هو عقل لا يملك شيئاً.

أما الروح القدس فقد صار فارغاً من كل شيء، فهو صفة الحياة، لا يملك العقل ولا يملك الوجود، فهو خارج موضوع المحبة برمته.

– ٥ –

ولكن هؤلاء الوعاظ يقولون إن الآب كائن بذاته، وناطق أو عاقل بالابن، وحي بالروح القدس! ونقول مرة ثانية إننا لم نجد هذا الشرح عند الآباء، وعلينا أن نتأمل المحبة كائنة بذاتها ناطقة أو عاقلة بالابن وحية بالروح القدس .. فكيف تصبح المحبة علاقة متبادلة؟ المحبة كائنة بدون عقل أو قدرة عاقلة بلا حياة ذاتية فيها .. فكيف يمكن للأب أن يحب الابن؟ وكيف يمكن للروح القدس أن يحب الآب والابن، وصفة العقل لا تخصه، وإنما هي خاصة بالابن!!!

– ٦ –

ولكن هؤلاء الوعاظ يقولون: الآب كائن بذاته وناطق بالابن وحي بالروح القدس .. حسن جداً، علينا أن نسأل أنفسنا إذا كان الآباء جميعاً قالوا بالتمايز بين الآب والابن والروح القدس .. فكل أقنوم يملك ما عبر عنه الآباء بأنه صفة أقنومية، لا يشترك في هذه الصفة أي أقنوم آخر. لأن وجود هذه الصفة في الأقنوم الأول فقط هو الذي يجعل الأقنوم الأول متمايزاً عن الأقنوم الثاني، ووجود الأقنوم الثاني بصفة أقنومية متمايزة عن الأول والثاني هو الذي يجعل هذا الأقنوم أقنوماً حقيقياً. ذات وجود حقيقي في الله .. وكذلك الأقنوم الثالث.

فإذا تمايز الآب عن الابن بـ "الذات"، وتمايز الابن عن الآب بـ "العقل"، صار من الواضح أن الذات صفة أقنومية خاصة بالآب وحده، وصار العقل صفة أقنومية خاصة بالابن وحده، وبذلك يصبح التمايز كيانياً وليس تمايزاً لفظياً فقط. وكما سنرى التمايز اللفظي خاص بالفرد الواحد أو الإنسان، أما التمايز الكياني أو الوجودي فهو خاص بالثالوث.

وإذا كان الابن لا يشترك مع الآب في صفته الأقنومية أي الذات أو الوجود، صار الآب متمايزاً عنه بالوجود ويملك هذه الصفة بشكل خاص به .. أي أن الابن بلا صفة الوجود ويأخذ من الآب وجوده .. كذلك الآب بلا صفة العقل ويأخذ فكره وعقله من الابن .. وهنا نرى نهاية المحبة الإلهية حسب الشرح السابق؛ لأن المحبة تحتاج إلى وجود وعقل وحياة وإرادة وحرية، لكي تصبح محبة متبادلة بين طرفين كل منهما له كيانه أو وجوده، وله عقله وإرادته .. وإلاَّ عجز عن أن يحب وأن يشترك في وحدانية المحبة ورأيها ومشورتها الواحدة.

-٧-

ما هي هرطقة سابليوس؟

كان سابليوس مثل غيره من الهراطقة تلميذاً مخلصاً للفلسفة اليونانية، وعندما اعتنق المسيحية وجد أن الإيمان بثلاثة أقانيم هو إيمان غير فلسفي لأن وجود الأقانيم الثلاثة لا ينسجم مع وحدانية الجوهر. ولذلك قال سابليوس بأن الأقانيم هم ثلاثة ظهورات لشخص أو أقنوم واحد هو الله الواحد. فالله الواحد ظهر في العهد القديم باسم الآب، وهو ذاته الآب ظهر في العهد الجديد باسم الابن، وهو أيضاً ظهر في يوم الخمسين باسم الروح القدس. هذه الظهورات هي أسماء لا وجود حقيقي لها، فالكائن الحقيقي هو الله الواحد، وهنا نرى أن تمايز الأسماء الآب والابن والروح القدس هو تمايز لفظي فقط حسب هرطقة سابليوس.

وفي هرطقة سابليوس إغراءٌ كبير للعقل غير المدرب على التمييز بين الحقيقة والخيال، وبين الكينونة واللفظ. فالآب ليس مجرد لفظ بلا مدلول كياني حقيقي خصوصاً إذا كان هذا الاسم يخص الله. فالآب ليس مجرد لفظ بلا حقيقة أبوة، وإلاَّ لَكان ذلك نهايةً فظيعةً لكل ما يمكن أن يقال عن أبوة الله وعن محبته كآب، فالله لا يحب فقط، وإنما يحب كآب. أي أن محبته معرفة وليست غامضة وليست مجردة. فالأبوة في الله هي أساس علاقته بنا وإلاَّ سقطت الأبوة تماماً، واعتبرت مجرد فصل في مسرحية يقوم بها ممثل واحد يرتدي مرة قناع الأبوة، ومرة قناع البنوة، ومرة ثالثة قناع الروح القدس. وتصبح هذه الأقنعة الثلاثة بلا مدلول حقيقي؛ لأن الممثل يخلع القناع ليرتدي غيره، وبذلك تختفي معالمه ويصبح من الصعب بل من المستحيل تحديد علاقتنا معه

وهكذا كان يفكر سابليوس وهكذا يفكر هؤلاء الوعاظ .. سابليوس كان حريصاً على توحيد بلا ثالوث أي أن الثالوث هو مشكلته، ولذلك يجب أن تحل بالقضاء على الثالوث من أجل توحيد فارغ بلا مضمون لا تربطه بالخلاص أي علاقة، ولا تربط الإنسان بأية حقيقة عن كيان الله وحياته وكينونته.

والتوحيد قديم جداً قِدم الوصايا العشر، بل أقدم؛ لأنه إيمان إبراهيم، ولكن توحيد إبراهيم ليس مجرد فكرة، بل هو توحيد إله العهد الذي يدخل التاريخ، ويتكلم ويقسم ويبارك ويخلص ويفتدي .. هو إلهٌ حي، وليس مجرد نفي للشرك وتعدد الآلهة.

إله المواعيد وإله الأنبياء وإله الكنيسة هو إلهٌ واحد جاء لكي يكشف لنا عن حقيقة كيانه، ويكشف لنا عن عدم قدرة اللفظ وعن ضعف الحرف، ويعلن أسرار كيانه لكي يؤسس علاقة جديدة أبدية حقيقية على أساس ما هو كامنٌ فيه من الأزل، وما حجبه هو عن الإنسان؛ لكي يعلنه في الوقت المناسب. وهكذا كشف الله عن أزلية حياته كآب وابن وروح قدس .. وأعلن الثالوث عندما جاء الابن متجسداً بشكل يفوق كل الإعلانات النبوية .. وجاء الروح القدس في ميلاد الابن من العذراء وفي معموديته، وجاء بشكل خاص في العنصرة .. وكشف لنا الله عن ثالوث الأقانيم كحقيقة كيانيه في ذات الله .. وصاغ الآباء هذا الإيمان:

أولاً: في مواجهة العودة إلى اليهودية.

وثانياً: في مواجهة الهرطقات التي حشدت براهين اليهودية عن التوحيد، والفلسفة اليونانية عن الجوهر والوجود، وتم أول نصر في المجامع التي حكمت على سابليوس، وتلاه نصر المجمع النيقاوي ٣٢٥م، ثم القسطنطيني ٣٨١م .. وجاءت بدعة أنوميوس لكي يجد الآباء أن التمييز بين الجوهر والاقنوم هو ضرورة لكي يتم فحص إيمان البسطاء والأنقياء، ليس على أساس لغوي، بل على أساس المحتويات والمعاني قبل الألفاظ والكلمات.

-٨-

فهل عادل هؤلاء في القرن العشرين إلى بدعة سابليوس؟

الجواب بكل صدق وإخلاص: نعم عادوا إليها جهاراً .. وبدلاً من أن يسمعوا تحذير الآباء، هاجموهم، واتهموا الذين يدافعون عن إيمان الآباء بالهرطقة .. وهذه هي المأساة، فالذئب يقول للحمل أنت الذئب .. ولم يعد أمام الحمل إلاَّ أن يترك الذئب يأكله لكي تظهر المخالب والأنياب وشراسة السلوك الوحشي نفسه .. وهكذا من الضروري أن نكشف ما تحت جلد

الحمل الذي يلبسه الذئب .. فالذئب ينكر التقليد، ويهاجم الآباء، ويحذِّر من كتب الآباء، ويحض الشعب على الاكتفاء بالكتاب المقدس وحده .. وبعد ذلك ماذا تبقى من الأرثوذكسية؟

-٩-

لماذا هذا التعليم هو تعليم سابليوس؟

والجواب كما هو واضح؛ لأن الصفات الجوهرية أو الذاتية أو الثلاثة .. أو أي وصف آخر للصفات هو بالتأكيد تعليم بالتوحيد فقط دون ثالوث بالمرة. فالله الكائن الذي تسمى كينونته بالآب، وعقله بالابن، وحياته بالروح القدس هو إلهٌ واحدٌ فقط، والثالوث فيه مجرد أسماء بلا مدلول حقيقي.

كيف ؟ الجواب هو إن تمايز الصفات هو تمايز في الكائن الواحد، أي الأقنوم الواحد. والواضح أن الوجود والعقل والحياة هي صفات لأقنوم واحد فقط. فلكي يكون الأقنوم هو أقنوم حقيقي يجب أن يكون له كيان أو ذات، وأن تكون هذه الذات عاقلة وحية .. وهذه عودة إلى التمايز اللفظي فقط الذي رفضه الآباء، وحكمت عليه المجامع المسكونية.

-١٠-

وهنا قبل أن نخوض في شرح الآباء لكلمة جوهر وأقنوم نسأل هؤلاء الوعاظ السؤال العقيدي المحدد: هل تؤمن بأن الابن من ذات جوهر الآب؟ أو حسب ترجمة الإكليريكية: "واحد مع الآب في الجوهر"؟ أو حسب ترجمة علماء القرن الثالث عشر: "المساوي للآب في الجوهر"؟

هذا هو إيمان المجمع النيقاوي. فكيف يمكن لقبطي أن يفرِّط فيه بعد معاناة ١٦٠٠ سنة. ولكن التفريط فيه ظاهر فيما تقدِّمونه من محاضرات ومقالات .. كيف يكون الابن من ذات جوهر الآب وهو بلا وجود؛ لأن صفة الوجود خاصة بالآب؟ وإذا كان الآب هو الوجود والابن هو العقل .. فالآب لا يشترك مع الابن في صفة العقل، والابن لا يشترك مع الآب في

صفة الوجود، فكيف تكون في أقانيم الثالوث مساواة مطلقة مع التمايز المطلق؟

وكيف يولد الابن من ذات جوهر الآب إذا كان هذا الجوهر لا يملك صفة العقل؛ لأن صفة العقل – حسب شرحكم – خاصة بالابن؟ وإذا كان الآب بالجوهر عاقلاً؛ لأن جوهر اللاهوت عاقل، والآب ناطق، ولذلك الابن ناطق، وما لا وجود له في الآب لا وجود له في الابن أيضاً. وهنا علينا أن نتوقف لكي نقول إن معلمنا أثناسيوس الرسولي شبَّه الثالوث بالشمس، والتشبيه هو مثال أو نموذج يشرح الحقيقة التي تعلو على الأفهام .. والتشبيه بالشمس لا يعني أن الثالوث هو مثل الشمس، فقرص الشمس يحتوي على الحرارة والنور .. هذه العناصر الثلاثة ليست مثل الاقانيم.

ومعلمنا أثناسيوس يريد أن يشرح الواحد في الثالوث، وليس الثالوث كما هو في حقيقة ذاته، ولو قال هؤلاء الوعاظ إن الوجود والعقل والحياة هو تشبيهٌ ومثال ونموذج، لَقُلنا لهم حسناً فعلتم، فالإنسان الذي يشرح الإيمان هو إنسان مجتهد وعامل من أجل الملكوت .. لكن هؤلاء قالوا إن هذا هو الثالوث في ذاته، وحاربوا الذين يريدون العودة إلى (سر الثالوث) كما شرحه الآباء.

فقد رفض الآباء التمايز اللفظي وحده، واعتبروه غير كاف للأسباب التي سنراها في حينها. ومن هنا أيضاً جاء تشبيه القديس أوغسطينوس بأن عقل الإنسان هو نموذج للثالوث، فالعقل يعمل من خلال الذاكرة والفهم والمخيِّلة، وهذه العناصر الثلاثة تكوِّن العقل الواحد .. ومرةً ثانية هذا شرحٌ للواحد في الثالوث، وليس شرحاً للثالوث في حد ذاته .. أي أن أوغسطينوس يحاول أن يشرح تثليث الأقانيم دون أن يؤدي التثليث إلى هدم التوحيد، ولكنه لا يحاول أن يشرح التوحيد أو الثالوث كما هو، ولا يتمسك بتمايز لفظي فقط، بل يتقدم إلى تمايز في جوهر الله وكيانه.

-١١-

وإذا عدنا غالى فكر هؤلاء وجدنا بكل أسفٍ هرطقة سابليوس ظاهرة بكل وضوح .. فالابن صفة، والروح القدس صفة، وتعريف الصفة مهما كان مصدره أو قائله هو تعريفٌ يخص الأشياء والأشخاص. فالماء بارد .. هذه صفة الماء وليست الماء نفسه .. الإنسان عاقل هذه صفة للإنسان وليست الإنسان نفسه. فالموصوف هو الذي يتسم بصفات كثيرة، ولكن يبقى الموصوف أكبر وأعظم من أي صفة من صفاته .. فالإنسان أعظم من أن يوصف بالعقل وحده، أو الحياة وحدها، أو الوجود وحده .. وهكذا.

وهنا يقودنا منطق أرسطو كما قاد غيره بعد القرن السابع الميلادي إلى اعتبار أن الجوهر هو أعظم من الأقانيم؛ لأن الجوهر هو الذي يحتوي على كل الصفات، هو أعظم من أي صفة، وكلمة الله عائدة على جوهر الله .. والنتيجة المرعبة التي نراها: إن الجوهر أكمل من كل أقنوم على حدة .. وهذا تجديفٌ ظاهر.

-١٢-

ولو قلنا بأن الأقانيم صفات ذاتية، فهي تصف الذات حسب التحديد والتعريف الذي يقدِّمه هؤلاء، فكيف يصف الوجود ذات الله؟ وكيف يصبح الآب وصفاً أو صفةً لجوهر الله؟ هنا يبدو الخطر الشديد، فالله كلمة تطلق على الآب والابن والروح القدس. والله والجوهر كما هو ثابت من كتابات الآباء هو حقيقة اللاهوت أو كيان الله، أو كما سنرى عند القديس باسيليوس، الجوهر ما هو عام ومشترك بين الأقانيم .. فكل أقنوم له ذات جوهر اللاهوت، وهذا هو ما يجعلنا نقول: "الثالوث المساوي". وهذا هو ما يجعلنا نقول أيضاً: الآب هو الله، والابن هو الله، والروح القدس هو الله، ولكن ليسوا ثلاثة آلهة، بل إله واحد. كيف؟ لأن اللاهوت أو جوهر أو كيان الله هو واحد في الأقانيم الثلاثة.

لكن حسب شرح هؤلاء يصبح الآبُ صفةً لجوهر الله، والابن صفةً لجوهر الله، والروح القدس صفةً لجوهر الله. فالصفة هنا هي التي تصف الجوهر – حسب هذا الشرح – وبالتالي الآب صفة لجوهر الله، أي أنه ليس هو مصدر وعلة الابن حسب شرح الآباء، فيصبح الابن هو ابن الجوهر، ويصبح الآب هو وجود في الجوهر، والروح حياة في الجوهر، وبذلك يصبح الجوهر هو حقيقة الله المجردة غير المعلنة، وليس الآب.

وبذلك ينتهي الإيمان بالثالوث .. ويدخل الجوهر طرفاً رابعاً أعظم من كل أقنوم على حدة، ويجمع الأقانيم في وحدة، فهو سبب وجودها وعلتها، وليس الآب نفسه .. ويصبح الآبُ مولوداً من جوهر الله أو صادراً عن جوهر الله .. حتى أريوس نفسه لم يقل بذلك، وإنما قال بأن الآب غير مولود والابن مولود ومخلوق.

-١٣-

ونصل إلى قمة الخطأ – إذا كان لأي خطأٍ قمة – إذا حاولنا أن نجعل من الوجود هو الآب، ومن العقل الكلمة أو الابن، والروح القدس هو الحياة .. هذه القمة أو الهاوية هي اختفاء إله الإعلانات إله الكتاب المقدس والآباء الذي تضاف إليه صفات غير ذاتية لكي يصبح الإله الحي، إله المحبة والفادي والمخلص .. هذه كلها حسب شرح هؤلاء ليست صفات أساسية أو جوهرية، فالقداسة والمحبة والحكمة والقوة والقدرة والحضور في كل مكان و .. الخ ليست صفات ذاتية، فالله يوصف بشكل أساسي بأنه وجود وعقل وحياة .. هذه هي الصفات الذاتية، وغيرها من صفات، هو غير مهم بالمرة بما فيها القداسة والمحبة!!! .. وتجريد الله من صفاته الذاتية مثل القداسة والمحبة يجعل الله يصل إلى ما وصل إليه المعتقل والسجين السياسي، فهو بلا اسم وبلا حرية ومقيد في الزنزانة .. هو عاقلٌ، لكنه غير قادر على الكلام. وهو ذو إرادة، ولكنه غير قادر على التنقل .. تعطلت صفاته الإنسانية بسبب السجن، ونزلت مكانته الاجتماعية إلى الصفر. وهكذا الله الذي تحول إلى كائن له عقل وله حياة، واعتُبِرَ هذا هو قمة التطور الفكري، وخاتمة الإعلان الإلهي عن الله في العهد القديم، وكأن التجسد والصلب والقيامة والعنصرة كلها إحداثٌ مجردة لا تعلن شيئاً عن صفات الله الذاتية .. كأن تواضع الابن وإخلاء الذات، وكأن المحبة التي جادت بكل شيء بما فيها الابن نفسه .. بل ونعمة وعطية الروح القدس .. هذه ليست أعمال ذاتية وصفات ذاتية وقدرات وعطايا نابعة من كيان الله نفسه .. بل كلها تدور في عمل لا يمس جوهر وحقيقة الله ما دام جوهر وحقيقة الله محصور وقاصر فقط على الوجود والعقل والحياة .. هنا يتوقف القلم؛ لأن القلب نفسه توقف عن التفكير، بل يكاد يتوقف عن الحركة وعن الحياة.

المحبةُ ليست صفةً ذاتيةً .. لماذا كل هذا العناء وآلام الموت وإخلاء الذات؟ والقداسةُ ليست صفةً ذاتيةً .. لماذا التقديس بالروح القدس، ولماذا يقبل الروح الكلي القداسة السكنى في البشر أو حسب تعبير القديس ديونيسيوس السكندري "إخلاء الروح القدس لذاته"؟ كل هذا يضع الخلاص برمته خارج حياة الله الحقيقة .. وإذا قال هؤلاء إن الأقنوم هو الصفة التي بدونها

تنعدم ذات الله، فكيف لا تنعدم ذات الله بدون المحبة؟ وكيف يكون الله هو الله بدون القداسة؟ .. وهكذا تصبح كل صفة لازمة لكي يكون الله هو حقاً الله أكثر من ثلاثة صفات، وينتهي دور الثالوث لأن المحبة صفة رابعة، والقداسة صفة خامسة، والقدرة على كل شيء صفة سادسة .. الخ.

-١٤-

وتتوه الكلمات مع المعاني، بل وتتوه المعاني أيضاً في وسط هذا الضباب الكثيف .. كيف أرسل الآبُ الابن، والآب لا يملك عقلاً؟ وكيف وعد الابن بإرسال الروح الذي ينبثق من الآب، والروح لا يملك إرادة؟ .. فالآب هو آب؛ لأنه الوجود، والابن هو الابن؛ لأنه العقل، والروح القدس هو الروح القدس لأنه الحياة .. فكيف نصل إلى الإرادة وهي تحتاج إلى العقل والحياة والوجود، ولكي يعمل كل أقنوم في وحدة مع الاقنومين الآخرين يحتاج كل أقنوم إلى معرفة وإرادة. فما هو مصدر الإرادة؟ الوجود، أم العقل، أم الحياة .. الوجود بلا عقل، والعقل بلا حياة، والحياة بلا وجود .. هذا هو ضباب الفكر الفلسفي الذي نزل بعقيدة من أقدس عقائد المسيحية إلى مستوى صار من الضروري – بسبب الحياء – أن نتوقف عن وصفه.

-١٥-

وقد يقول قائل .. إننا نتجنى وإن الحقيقة هي عكس ذلك بالمرة، فالآب يفكر بالابن وما هو الخطر في ذلك؟ وحسب شرح واحد من الإكليروس: "أنا حليت المسألة بمخي .. يبقى مين حل المسألة أنا ولاَّ مخي"، ويقع السُذج في فخ الخداع اللفظي الظاهر بوضوح، والذي من الضروري أن نكشفه بوضوح، ذلك أن التشبيه خاص بأقنوم واحد، وهو الإنسان الواحد، والشخص الواحد الذي لا وجود بالمرة لثلاثة أقانيم اللاهوت فيه.

والحقيقة الظاهرة هي أن المتكلم هو العقل، وهو الأنا التي لا يمكنها أن تنطق أو تحل المسألة .. لا ثنائية ولا تمايز بالمرة إلاَّ في اللغة. وعبارة أنا حليت المسألة بمخي .. هي عبارة تشرح ما يحدث في داخل الفرد الواحد .. وحتى أستاذ المنطق أرسطو يقف مبهوتاً أمام هذه المغالطة، وحسب قواعد المنطق:

أنا حليت المسألة	مقدمة
مخي حل المسألة	مقدمة
إذن أنا = مخي	نتيجة

ولأن هؤلاء لا يؤمنون فعلاً بوجود أقانيم ثلاثة في جوهر الله، صارت هذه التشبيهات عندهم هي التعليم العقيدي، والويل لمن يعارض، ويطالب بالعودة إلى الآباء.

كل هذا يجعلنا نقول من موقع الحرص على تعليم المسيحية الأول والأخير، إن التمايز اللفظي بين "الأنا" و"العقل" أو "المخ" هو تمايز في كائن واحد هو الإنسان، وهو تمايز لفظي لا يعبر عن تمايز في كيان الإنسان، والتمسك بالتمايز اللفظي وحده هو عودة صريحة ومعلنة إلى هرطقة سابليوس الذي تمسك بالتمايز اللفظي بين أسماء الثالوث وأنكر أن خلف هذا التمايز اللفظي يوجد تمايز في جوهر الله أي أقانيم الثالوث.

ومن باب الخداع أيضاً أن يسأل المتكلم ويقول: "مين اللي حل المسألة"، وذلك أننا لو قلنا إن الأنا والمخ (والصحيح العقل) هو تمايز في الإنسان الواحد لبقى لدينا سؤال خطير:

كيف وبماذا تتمايز الأنا عن العقل؟

ماذا تملك الأنا بدون العقل؟ .. الواقع إن الأنا صادرة من العقل، وهي إحدى قوى العقل لأن الأنا لا وجود لها خارج العقل .. وبالتالي الأنا ليست متمايزة عن العقل كيانياً، بل لفظياً. لنتصور أن الأنا ترسل العقل .. كيف ترسل الأنا التي لا تملك عقلاً وفهماً العقل الذي يملك الإدراك والفهم؟

هكذا إذا قلنا إن الابن هو عقل الآب .. فالآب لا يرسل عقله؛ لأنه يحتاج إلى عقل يرسل به عقله. وهكذا يسقط خداع التمايز اللفظي.

الخلاصة: إن الذات والعقل والحياة هي مكونات الشخص الواحد، وبالتالي يظهر لنا بوضح أن الشرح السابق للثالوث هو ذات شرح سابليوس لأنه يجعل الأقانيم مكونات أقنوم واحد، فكل أقنوم حي وعاقل ويفهم ويدرك ويحب ويريد، وبالتالي لكي يكون كل أقنوم هو فعلاً من أقانيم الثالوث، فهو كائن وعاقل وحي وإلا انعدم كأقنوم .. وهذا ما سوف نشرحه بالتفصيل بعد ذلك.

-١٦-

الأقنوم الواحد هو وجود وعقل وحياة:

١- حسب التعليم السائد اليوم، والذي ينشره بعض الإكليروس وهو في الواقع تعليم بأقنوم واحد وليس بالثالوث، والدليل على ذلك هو في كلام ربنا يسوع المسيح الذي هو أساس ودعامة التقليد الرسولي الذي سلمه لنا آباء الكنيسة والذي سوف نشرحه.

٢- يقول الرسول بولس عن ربنا يسوع المسيح: "الذي وهو بهاء مجده ورسم أقنومه أو جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته" (عب ١: ٣)، ورسم أقنوم الآب هو التعريب القبطي القديم في القطمارس القبطي العربي.

وما معنى كلمة رسم اقنومه أو رسم جوهره؟

طبعاً التمييز بين الجوهر والأقنوم هو تمييز غير معروف حتى في زمن أثناسيوس الرسولي، وفي رسالة القديس أثناسيوس إلى أساقفة إفريقيا يقول: "**الجوهر يعني الأقنوم. والأقنوم يعني الوجود أو الكيان الإلهي**" (فقرة ٤)، أي أن الابن له ذات كيان الآب، وهذا هو معنى "المساوي للآب في الجوهر"، أو "الواحد مع الآب في الجوهر"، أو "الذي من نفس جوهر الآب"؛ لأن كلمة Homo تعني من نفس النوع، وكلمة Ousia تعني جوهر. إذاً الابن له

ذات كيان الآب، وله ذات جوهر الآب، وكلاهما ليس صفةً للجوهر أو الذات، بل كلاهما يملك جوهر اللاهوت كله وبمساواة مطلقة ..

ما هو الجوهر؟ هو صفات الله كلها، أو اللاهوت، أو الطبيعة الإلهية، وهي الكيان الإلهي، أو الذات الإلهية، أو الله نفسه.

نص القديس أثناسيوس (المجلد المترجم عن اليونانية ص ٤٩٠ فقرة ٤ العامود الثاني)

Subsistence is essence and means nothing else but very being.

Subsistence = Hποστασει

في هذه الفترة التاريخية كان المستقر في الشرق منذ زمن العلامة أوريجينوس أن الجوهر = الأقنوم وان هذا يعني ثلاثة أقانيم كل أقنوم له نفس الكيان والوجود والذات الإلهية.

وإذا كان الابن هو "صورة الله غير المنظور"، أو "لم يحسب مساواته لله اختلاساً"، أو "رسم أقنوم أو رسم جوهر الآب"، فان المقصود بذلك أنه معادل، أو مساوي، أو له ذات الكيان، أو – بعد ذلك منذ مجمع نيقية – "من ذات جوهر الآب"، وبعد دحض البدعة الأريوسية "واحد مع الآب، أو مساوي للآب في الجوهر".

الجوهر وهرطقة سابليوس:

تعليم سابليوس بسيط وسهل، وهذه هي الخطورة الأساسية، ذلك أننا إن استطعنا أن نبسِّط التعليم الخاص بالله إلى الدرجة التي يمكن للعقل البشري معها أن يتحدث عن الله كما يتحدث عن مشروعات تعمير دير أو بناء كنيسة أو استصلاح الأراضي، فقد نزعنا عن الله سر وجوده، وجعلناه مثل أوزوريس وإيزيس وغيرهم من آلهة مصر القديمة.

ليست المشكلة في نزع "السر"، ولكن المشكلة هي أن نزع السر ينزع من الإنسان نفسه كل أبعاد التدين السليم، ويجعل الله "وثناً" قابلاً للفحص، والله يفحص الإنسان أكثر مما يفحص الإنسان الله. وفحص الله للإنسان هو إحدى دعائم الإعلان الإلهي في يسوع المسيح.

وخطورة هرطقة سابليوس هي أنها حولت المحبة الإلهية إلى مسرحية هزلية، فالله يظهر مرةً على أنه الآب، ومرةً على أنه الابن، وأخيراً يظهر على أنه الروح القدس .. لأنه كيان واحد يظهر في ثلاثة أشكال متعاقبة. هذه الأشكال لا وجود حقيقي لها في ذات الله.

وهنا تبرز الخطورة الأكبر، أي الفرق بين الظهور والشكل، والإعلان الإلهي والجوهر أو الكيان الإلهي نفسه. فما يعلن لا علاقة له بما هو كائن وحقيقي في الله. الإعلان شيء والحياة الإلهية شيء آخر، وهذه هي نفسها ذات مشكلة الأريوسية. فالله الواحد الحقيقي هو الآب فقط ويسوع يمكن أن يدعى إلهاً كما دعي بعض البشر في العهدين .. نفس المشكلة تصور فرق بين العمل والحياة أو الكيان، فما يصدر عن الله ليس له علاقة بالله. وما يعمله الله وبشكل خاص "تدبير الخلاص" لا علاقة له بالجوهر أو بالذات الإلهية أو بحياة الله نفسه.

هذه هي ثنائية الحياة والعمل، وهي ثنائية صادرة عن الكذب نفسه، وعن زيف الحياة البشرية نفسها، والذين يكذبون أو عرفوا الكذب، أو سمعوه يعرفون أن الكلام الصادر عن الكاذب مثل عمل الكاذب لا علاقة له بما في قلبه.

لقد كان الخطر الأخلاقي لهرطقة سابليوس خطراً حقيقياً؛ لأن الله يصبح مثال الكذب والزيف، وتصبح المسيحية دعوة تزييف ووهم، لكن المشكلة الحقيقية تبرز في فقدان الخلاص، فإذا كان الآب ليس أقنوماً متمايزاً، وصار بعد ذلك هو بنفسه الابن .. كانت النتيجة هي فقدان الإنسان لأبوة الله، ثم فقدان الإنسان لعطية التبني في ربنا يسوع المسيح؛ لأن هذا ليس إلا حديث وألفاظ لا تمس واقع الله وكينونته، وتبقى الحقيقة الظاهرة بوضوح شديد .. لو كان الآب هو الذات، والابن هو العقل، فأين أبوة الله للإنسان؟ لقد نزعنا عن الله الأبوة، وجعلنا الله مثل آلهة الديانات الأخرى، وحولناه إلى كيان .. كيان غامض غير معرّف. كيان لا يملك حقيقة

إعلانية عن علاقته بالإنسان، وجعلنا بنوة الإنسان مجرد ألفاظ بلا مدلول كياني.

فما هي علاقة ذات الله بالإنسان في المسيحية؟ وما هي هذه الذات المجردة التي لها صفات ثلاثة غامضة وغير معلنة؟ لقد ضاعت أبوة الله، وحلَّ بدلاً منها تصوُّر عقلي مجرد، وبعد ذلك كيف يمكن لنا أن نتحدث عن محبة الذات الإلهية، وما هو الإعلان الذي قدَّمه الله للإنسان؟ غموضٌ لا يتفق مع البشارة المفرحة أي الإنجيل، وتجريد لأهم سمات المحبة .. فهي ليست مجرد محبة، وإنما هي "محبة الله الآب"، أي أنها محبة معرّفة ونابعة من كينونة الله نفسه، وتتجه نحو الإنسان في الابن. وكيف يعطي العقل التبني؟

لقد أعطى لنا الابن شركة في بنوته حسب قول الرسول بولس: "البكر بين أخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩). والابن صار البكر بولادته من العذراء بكراً، وبقيامته من الأموات "بكر الراقدين"؛ لأنه قام دون أن يسود عليه الموت. هذه البكورية تعود إلى علاقته الأقنومية بالآب. فالابن ليس له أب حسب الجسد، وحسب المثال المشهور في الرسالة إلى العبرانيين: "بلا أب بلا أم بلا بداءة حياة .." (عب ٧: ١). وملكي صادق الذي أخبر من خلال الرمز عن ابن الله كان أيضاً يعلن صفات الخليقة الجديدة التي هي أيضاً بلا أب وبلا أم وبلا بداءة حياة .. لأن الذين ولدوا من الله حسب كلمات إنجيل يوحنا ينالون امتياز البنوة والولادة من فوق، ليس من آباء حسب الجسد، ولا من أمهات، ولا بداءة حياة، لأن الحياة التي يشتركون فيها هي حياة الابن التي بلا بدء .. وهنا تبرز النقطة الخطيرة في إحلال العقل محل أقنوم الابن الكلمة؛ لأن رابطة الأخوّة الجديدة الخاصة بالخليقة الجديدة تنهار تماماً، فالإنسان لا يعود إلى الآب من خلال التبني وفي الابن، وإنما يعود إلى الذات أو الوجود من خلال العقل، فأي انهيار للنعمة أكثر من ذلك!! لقد أعطانا تجسد الابن الوحيد إمكانيات الشركة في الطبيعة الإلهية .. هذه الشركة ليست شركة عقل في عقل، ولا عودة فكر إلى برنامج، وإنما هي شركة في شخص أو أقنوم الابن، وتجلي وتحوُّل الإنسان المنهار الفاسد والميت إلى شخص ابن أو شخصية ابن، وبعلاقة شخصية بالابن وبالروح القدس.

الفرق بين سابليوس وتعليم الآباء هو فرق خطير وهائل؛ لأنه فرقٌ بين المجرّد وغير المعروف أي الوجود والذات والعقل، وبين المعلن والظاهر والسِّر، أي الآب والابن والروح القدس.

ولأن الابن البكر أعطانا هذه العلاقة الشخصية مع أقنوم الآب، وردَّنا بالميلاد الجديد في المعمودية إلى رتبة التبني، فإن التجسد أظهره كابن الآب؛ لكي نعرف حقيقة بنوتنا فيه وحقيقة علاقتنا بالآب، ولم يظهره التجسد كعقل الآب؛ لأن عقل الآب أو عقل الله غير مدرك ولا معروف ولا يمكن التعبير عنه ولا يعلن بالمرة؛ لأن الرسول بولس نفسه يقول لنا: "مَن عرف فكر الرب"، بل مَن يعرف فكر الله وروحه، ومَن يفحص أعماق حكمته إلاَّ الروح القدس .. وهكذا ينزع هؤلاء الإعلان عن البنوة ويضعون إعلاناً مجرداً فارغاً بلا مضمون .. عن ذات وعقل .. بينما كلمات الله تقول: الآب والابن والروح القدس.

فالجوهر الإلهي، أي الحياة والكيان الإلهي هو واحدٌ في الآب وفي الابن والروح القدس .. وهذا هو تعليم الخلاص؛ لأن حقيقة الحياة الإلهية هي حقيقة واحدة، وصفات الوجود والعقل والحياة والحكمة والمحبة والقدرة هي صفات لكل أقانيم الثالوث؛ لأنها صفات الجوهر الواحد التي تخص كل أقانيم الثالوث.

-١٨-

إخلاءُ الابن هل هو إخلاءٌ للعقل الإلهي؟

يعلمنا الرسول بولس أن سر تدبير الابن المتجسد تم على النحو التالي: "الذي إذ كان في صورة الله .. أخلى ذاته، آخذاً صورة العبد" (فيلبي ٢: ٦، ٧). فلو كان الابن حسب التصور السابق هو عقل الله، فكيف قيل إنه أخلى ذاته، أو – حسب الترجمة الشائعة – أخلى نفسه، والنفس هنا ليست النفس الإنسانية، إذ يظهر من النص أن للابن ذات، وأن هذه الذات غير ذات الآب، إذاً الابن ليس عقل الله؛ لان العقل صفة عامة لكل أقانيم الثالوث. ويكفي هنا أن نتصور أن الابن أخلى ذاته، وحسب شرح هؤلاء – تصبح كلمات الرسول بولس: "أخلى عقله"،

فكيف حقق التجسد وأكمل التدبير وصنع المعجزات؟ .. إخلاء العقل يقود إلى تحديف يجب أن نعفي القارئ منه. وإذا تصور أحدٌ أن إخلاء الذات = إخلاء العقل، فعليه أن يراجع، ليس فقط صلوات الابن المتجسد التي سوف ندرس بعضها في السطور التالية، وهي تؤكد لنا – أي هذه الصلوات – أن الابن كان يتكلم مع الآب .. ولكن أيضاً تصريحات الابن لا سيما في إنجيل يوحنا، أي تلك التي يقول فيها: "أنا هو"، فهذه عبارة صادرة من الابن المتجسد تؤكد عدم إخلاء العقل.

وحسب تصور هؤلاء أيضاً يصبح إخلاء الذات هو تجسد الآب، فالآب هو الذات والابن هو العقل .. ونتائج هذا الكلام أخطر بكثير، ومرةً ثانيةً نعفي القارئ من هذه الأفكار الخاطئة التي لا تحتاج لدراسة، ولأن هؤلاء لا يؤمنون بتجسد الآب، وإن كان شرحهم للثالوث كذات وعقل وحياة يقود إلى ذلك في النهاية.

ولعل القارئ يدرك أن التخبط مصدره هو التنازل عن تعليم الآباء، وأن الابن هو أقنوم، وليس صفة، ولو استطاعت صفة من الصفات أن تخلي ذاتها أي تتنازل عما فيها، لقلنا إنها وصلت إلى العدم، ولكن الشخص أو الأقنوم يملك أن يخفي صفاته وقدراته، وأن يتنازل عن استخدام هذه الصفات، فهو قوي، ولكنه يؤجل أو يترك بحريته استخدام القوة .. ويكفي أن نتذكر إن الرب كثيراً ما تنازل عن استخدام معرفته المسبقة أو أخفاها أو لم يستعملها؛ لأنه يملك المعرفة، ومَن يملك يمكنه أن يتنازل.

– ١٩ –

صلوات الابن المتجسد

صلَّى ربنا يسوع المسيح في مواضع مختلفة حسب التدبير، والسؤال المطروح أمامنا محدد وسهل، كيف يصلي العقل (الابن) للذات (للآب)؟ وكيف يمكن أن يقال إنها صلاة؟ .. وحسب شرح هؤلاء: هذه الصلوات مناجاة داخلية خاصة بأقنوم واحد؛ لأن الذات التي تسمع

هي ذات عاقلة. وعند قبر لعازر قال الرب: "أشكرك أيها الآب لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك تسمع لي .." (يوحنا ١١: ٤١ – ٤٢) .. فكيف يخاطب الابن الآب، والآب بلا عقل، ولا يمكنه أن يسمع إلاَّ من خلال الابن؟ ولا يمكن أن يقال لمن يسمع بواسطة غيره .. "إنك في كل حين تسمع لي"، هذا تجديف رهيب حقاً أن يصبح الابن متكلماً مع نفسه فقط، فالعقل البشري قادر على أن يناجي نفسه، ولكن هنا يناجي الابن أقنوم الآب؛ لان الآب الذي بلا عقل لا يمكنه أن يسمع ولا أن يرى ولا أن يرسل الابن الوحيد. وطبعاً كيف نفشل هنا في اكتشاف أن تمايز الآب والابن حسب شرح هؤلاء هو تمايز لفظي فقط.

يقول ربنا يسوع أيضاً: "أيها الآب مجد اسمك .. فجاء صوت من السماء مجدت وأمجد أيضاً" (يوحنا ١٢: ٢٨)، والآب يتكلم مع الإنسانية ويقول: "هذا هو ابني الحبيب"، وهنا يتكلم الابن مع الآب ويجيب الآب من السماء .. فكيف تم الحديث، وكيف قال الآب للابن: "اجلس عن يميني" (مزمور ١١٠) .. الحوار والحديث لا يمكن أن يكون إلاَّ بين اثنين كلاهما عاقل قادر على التخاطب.

هذه الصلوات تؤكد عدم صحة تعليم هؤلاء وتؤكد أيضاً أن الآب عاقل ويسمع صلوات ابنه الوحيد، وهنا يجب أن يتوقف تمايز الصفات؛ لأن الصفات لا تسمع الصلوات، ولا تملك صفة أن تتحدث مع أخرى، وحسب شرح هؤلاء تصبح صلاة الابن المتجسد في يوحنا ص ١٧ باطلة لأنها مجرد مناجاة داخلية .. ليست موجهة للآب .. ومن يخاطبه بقوله: "أيها الآب .." ليس إلاَّ ذاته ..

– ٢٠ –

مواعيد الآب المعلَنة في الابن

١– إذا كان تعليم الرسل في إنجيل يوحنا هو مصدر ذلك التعليم الذي يدَّعى أصحابه بأن الابن هو اللوغوس، وأن هذا يعني العقل، وبالتالي الابن هو عقل الله .. فماذا يقول الابن لنا

عن مواعيد الآب .. "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته وأعطاه سلطاناً أن يدين .." (يو ٥: ٢٦ – ٢٧). كما أن الآب هو ذات، فقد أعطى الابن أن يكون له ذات .. أم كيف نترجم هذه الأقوال الإلهية:

– الذات لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للعقل (يوحنا ٥: ٢٢).

– كما أن الذات يقيم الأموات ويحيي كذلك العقل أيضاً يحيي من يشاء (يوحنا ٥: ٢١).

– الذات الذي أرسلني يشهد لي .. (يوحنا ٥: ٢٧).

– كل ما يعطيني الذات فإليَّ يُقبل .. لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذات الذي أرسلني (يوحنا ٦: ٣٩).

– وكيف يمكن أن تحل الذات محل الآب في: "لا يقدر أحد أن يقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني" (يو ٦: ٤٤).

٢– وهنا أيضاً نرى في مواعيد الابن لنا بأن الذي رأى الابن ويراه، إنما يرى الآب. فكيف نرى العقل وتصبح رؤيتنا للعقل هي ذات رؤيتنا للذات؟!!

٣– وإذا كان هدف الابن هو أن نكون واحداً مع الآب والروح القدس، فكيف تصبح هذه الوحدة قائمة بيننا وهي وحدة صفات؟ .. أيُ وحدةٍ هذه؟ .. ما هو الوعد الإلهي أن يكون "الجميع واحداً فينا" (يوحنا ١٧: ٢١)، وهذه الوحدة هي وحدة صفات لا وحدة أشخاص حسب شرح هؤلاء؟ .. وبالتالي تصبح وحدة الأشخاص أي البشر أسمى وأصعب وأكمل من وحدة صفات، أي أن البشر يصبحون هم النموذج الذي يقلده الله وليس العكس ..

ويبقى السؤال الخطير: كيف أصبحت الصفات واحدة؟ "كما أننا نحن واحد" الأقانيم واحدة لأن لها ذاتاً واحدة وجوهراً واحداً، ولكن الصفات متعددة .. فإذا قال الرب إنه واحد مع الآب، وتصوَّرنا هنا أن هذه هي وحدة صفات، لاختفى حتى تمايز الصفات نفسه، وحلَّ توحيدٌ غريب محل هرطقة سابليوس .. وطبعاً هرطقة سابليوس أفضل من توحيد لا يملك الله فيه إلاَّ صفةً

واحدةً. ونحن هنا لا نتجاسر ونتهم، وإنما نسأل: الآب والابن واحد، فكيف تكون هذه الصفات الذاتية واحداً؟ الذات أو الجوهر هو جوهر واحد، وهذا هو سر توحيد المسيحية، ولان الآب والابن جوهر واحد قال الرب: "أنا والآب واحد"، والصفات تتمايز حسب شرح هؤلاء لأنها صفات ذاتية .. ويكفي أن نسأل: كيف صار أو كيف يمكن أن يقال إن العقل والوجود والحياة هو واحد. وكيف يقول العقل أنا والذات واحد أو أنا والذات والحياة واحد؟ أليس هذا هو كلام الفرد الواحد والإنسان الواحد؟ أليس هذا هو كلام يمكن أن يصدر من شخص واحد ومن أقنوم واحد يتكلم عن نفسه وعن ذاته الواحدة التي تضم عقله وحياته ليقول: أنا واحد مع نفسي؟ .. أليس هذا هو ما يؤدي إليه تمايز الصفات الذاتية؛ لأن تمايز الصفات الذاتية هو تمايز لفظي فقط، فالذي يجمع الصفات معاً في وحدة هو الذات الواحدة. ولكن عبارة "أنا والآب واحد"، هي عبارة فيها تمايز الاقانيم، وهو تمايز في جوهر الثالوث .. وكلمة "واحد" تستدعي فعلاً تمايز الأقانيم لأنها لا تُستخدم إلاَّ في مجال الكلام عن اثنين أو أكثر .. وإلاَّ لماذا يقال عن الرجل والمرأة إنهما جسد واحد إلا لأنهما كانا غير ذلك وبعد الزواج يسعيان إلى هذه الوحدة التي يحفظ كل طرف فيها تمايزه المطلق، ولكن في وحدة الزيجة.

٤- كل من يأكل جسد الابن في الإفخارستيا يحيا إلى الأبد .. فكيف يقول الرب: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه" (يوحنا ٦: ٥٦)؟ كيف نثبت في العقل الإلهي، وكيف يقول الرب بعد ذلك: "كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب فمن يأكلني يحيا بي .. (٦: ٥٧)؟ وحسب شرح هؤلاء .. يصبح من الضروري أن نقول "كما أرسلني الآب الحي بالروح القدس وأنا حي بالروح القدس فمن يأكلني فهو يحيا بالروح القدس .. لأنه حسب شرح هؤلاء: الحياة = الروح القدس وبذلك يصبح الابن الكلمة جاهلاً بحقيقة الثالوث، فهو ليس حي بالآب، وإنما هو حي بالروح القدس .. هكذا وصلنا إلى نهاية التجديف لأننا صرنا نعرف الثالوث أكثر من الابن وحذفنا حياة الآب لنضع حياة الروح القدس بدلاً عنها، وأخيراً جعلنا المتناول يحيا بالروح وبلا علاقة مع الآب ومع الرب يسوع الذي يأكل جسده ودمه.

٥- وكيف نتوجه للآب في الصلاة حسب قول مخلصنا: "مهما سألتم من الآب باسمي .." (يوحنا ١٤: ١٣) .. فكيف نصلي لمن لا يسمع .. وما هو دور الوسيط هنا؟ "فذلك افعله" كيف يفعله؟ "إن سألتم شيئاً باسمي .." الأجدر أن يكون الآب هو الوسيط والعقل أي الابن هو الذي نتوجه إليه بالصلاة؛ لان العقل هو الذي يسمع وهو الذي يستجيب، وبالتالي لا يكون العقل هو الوسيط لدى الذات، بل الذات هي الوسيط لدى العقل.

-٢٢-

الباركليت الذي سيرسله الآب

١- حسب تسليم الآباء وبشكل خاص أثناسيوس وباسيليوس الكبير: الآب يرسل الابن والابن يرسل الروح القدس .. وكل عطية هي من الآب بالابن في الروح القدس (رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس). وهنا نتوقف قليلاً لكي نسأل: هل الحياة الأبدية خاصة بالروح القدس فقط؟ .. فالروح القدس هو صفة الحياة. الآب ليس صفة الحياة، وإنما هو الذات أو الوجود، فالآب حسب شرح هؤلاء هو حي بالروح القدس .. لا حياة خاصة به .. ويبتسم هؤلاء ويقولون: "حي بالروح القدس ناطق عاقل بالابن"، وطبعاً نحن لا نفصل الأقانيم، وحتى في نص التقليد ليس لديهم نية فصل الأقانيم .. لأنه لا توجد عندهم أقانيم، وإنما صفات.

فكيف ننال الحياة الأبدية التي كانت عند الآب (١ يوحنا ١: ٢). الحياة ليست عند الآب، بل عند الروح القدس، وقد يقول هؤلاء: لا إنها عند الآب؛ لأن الروح القدس لم ينفصل عن الآب .. ولكن الآب صفة الوجود، إنه لا يملك في ذاته إلاَّ ما يناله من الروح .. إنه بلا حياة وبلا عقل مع أن الآب مصدر كل شيء الواهب كل شيء بالابن .. الآب لا يملك حياة، وإنما الحياة في الروح القدس وفي الروح القدس وحده .. وبالتالي لا يملك الآب أن يرسل الحياة الجديدة لنا مع أنه هو يحتاجها أولاً لنفسه لكي يحيا بالروح ويفكر بالابن .. مَن الذي يقرر هنا عطية

الحياة، الآب أم الابن أم الروح؟ من الذي يملك الإرادة؟ الآب الذي بلا إرادة إلاَّ بالابن، والإرادة هي التي تقرر. الابن الذي بلا حياة إلاَّ في الروح القدس، والروح لا يملك الإرادة؛ لأن الحياة بلا عقل خاص بها، بلا قدرة، بلا نفع حياة بلا إرادة.

٢- ويسقط هؤلاء في ذات خطأ سابليوس ذلك أن التمايز بين الأقانيم، وهو موضوع مستقل سوف نعالجه بعد ذلك يعني هذا التمايز أن الآب غير الابن والابن غير الروح القدس .. فكيف ننال الحياة الأبدية؟ من الآب الذي بلا حياة؟ بالابن الذي هو أيضاً بلا حياة؟ في الروح القدس الذي هو بلا إرادة لأنه بلا عقل؟

٣- "الروح لا يتكلم من ذاته، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية" (يوحنا ١٦: ١٣) فكيف يسمع الروح ويتكلم ويخبر، وهو لا يسمع إلاَّ بالابن، ولا يتكلم إلاَّ بالابن، بل كيف يقول الابن: "يأخذ مما لي ويخبركم" (يوحنا ١٦: ١٤)؟ كيف يأخذ وهو بلا عقل، وكيف يمجد الابن وهو الذي يشهد للابن (يو ١٥: ٢٦)؟ لكي يشهد الباركليت ويدبر الكنيسة ويعطي للمؤمنين أن يقولوا إن يسوع هو الرب (١ كور ١٢: ٣) يحتاج الروح إلى عقل وقدرات عقلية لكي ينطق فينا .. وهو ما أخبرنا به الرب نفسه: "لستم انتم المتكلمين"، لماذا لان روح الآب أو الروح القدس هو الذي يتكلم. وكيف يتكلم من لا يملك قدرة الكلام وهل هي قدرة العقل، أم أن الروح القدس يقول لنا: "يسوع رب" في حين يكون القائل هنا هو العقل أي الابن وليس الروح القدس؟ وكيف ننال حكمة الآب من الروح، وحكمة لا يقدر المعاندين أن يقاوموها .. والحكمة هنا في الواقع ليست من الآب وإنما هي عطية من الابن؛ لان الابن هو العقل، والحكمة خاصة بالعقل، ويكون عمل الروح القدس وشهادته هو في الواقع عمل الابن وشهادته؛ لان "المسيح هو حكمة الله" (١ كور ١: ٢٤).

-٢٣-

تخصص الصفات يعني هدم الثالوث

١-كل صفة إلهية تعمل حسب ما تستطيع أن تعطيه هذه الصفة .. والحقيقة أن الصفة لا تعمل من ذاتها، وإنما الأقنوم هو الذي يملك كل الصفات، فالآب خاص ومتخصص بالوجود .. صفة الوجود في الجوهر الإلهي .. الابن خاص ومتخصص بالعقل .. صفة العقل في الجوهر الإلهي .. الروح خاص ومتخصص بالحياة .. صفة الحياة في الجوهر الإلهي.

٢- إذن كل صفة تمد الصفة الأخرى بما ليس فيها، وبما لا تملكه، وإلاَّ استحال الاحتفاظ بالتمايز. فإذا كان الآب متمايزاً عن الابن بالوجود، والابن متمايزاً بالعقل، والروح القدس متمايزاً بالحياة، فان الآب غير الابن، والابن غير الروح القدس .. الخ حتى يبقى الثالوث ثالوثاً.

٣- وهنا تبرز هرطقة سابليوس واضحة، فالآب لكي يرسل الابن إلى العالم لكي يعلنه الابن ويبشرنا بالمحبة هو في الواقع غير الابن لأنه متمايز عن الابن وإلا انتهى الثالوث. ولكن الآب يتمايز عن الابن بصفة الوجود .. فكيف استطاع الوجود كصفة أن يرسل العقل، وأن يرتب تجسده وهو في الحقيقة غير متخصص بالخلاص ولا بالتدبير ولا قادر على أن يشارك الابن؛ لان التدبير هو وليد العقل.

وحسب شرح هؤلاء يفقد الآب دوره في الخليقة، وفي الفداء، فهو كائن بذاته وناطق بالابن .. أي أنه غير قادر على أن يخلق إلاَّ بالابن، في حين أن الابن المتجسد يقول لنا إن الآب يعمل فيَّ كل حين (يو ٥: ١٧). فالآب خالق لأن إرادة الخلق خاصة به، والآب مخلص لأن إرادة الخلاص خاصة به لا تؤخذ من الابن، وإنما حسب إنجيل يوحنا والآباء الابن هو الذي يأخذ من الآب، والروح يأخذ من الابن .. فالآب يعطي من ذاته حراً ويبذل حراً لأن إرادته حرة وحياته وكينونته هي وفكره حر لا يأخذه من الابن؛ لان الإرادة والحرية والكينونة والعقل هي

صفات عامة لجوهر الله الواحد ولا تحصر في أقنوم دون آخر، بل هي صفات كل أقنوم.

ونصل هنا إلى قمة تناقض هؤلاء .. الآب يتمايز بالوجود ومع ذلك هو عاجز عن أن يمارس ما يتمايز به أي أنه صفة الوجود ولا يستطيع أن يجود إلا من خلال الابن، وهذا عكس ما تقوله كل إسفار العهد الجديد.

ونصل مع هؤلاء إلى عقيدة انبثاق الروح القدس من الآب والابن معاً، وهو التعليم الذي رفضه الشرق .. فإنجيل يوحنا يقول: "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن يكون له حياة في ذاته" (يو ٥: ٢٦)، وحسب شرح هؤلاء .. الحياة هي الروح القدس، وبالتالي ما دام الآب له الحياة أو الروح القدس في ذاته فقد أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته أي أعطاه الروح القدس منبثقاً منه هو أيضاً، وإلا عجز الابن عن أن يكون حياً بدون الروح القدس.

وكيف يكون للآب حياة في ذاته، وهو حسب تعليم هؤلاء حي بالروح القدس؟ وكيف يعطي الابن وهو لا يملك العقل أو الإرادة؟ وفقد الابن ما يتمايز به أي العقل فهو لا يملك أن يخلص البشرية، وإنما لان الخلاص هو رد الحياة إلى الخليقة وبعث الموتى ومصالحة حياة الله مع الترابيين والموتى، فإن الابن لا يفعل ذلك من ذاته أي بما تخصص وتمايز به وهو العقل وإنما يفعل ذلك من خلال الروح القدس. فالحياة حسب شرح هؤلاء – الابن حي بالروح القدس – لا تعطى بواسطة الابن وهنا يسقط قول ربنا يسوع المسيح نفسه: "كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب .." (يو ٦: ٥٧)، وقوله أيضاً له المجد: "أنا هو الحياة .." (يو ١١: ٢٥) يفقد معناه ويصبح في الحقيقة خطأ عقيدي ارتكبه رب الحياة نفسه لأنه كان يليق به أن يقول كما أن الآب حي بالروح القدس وأنا حي بالروح القدس .. هذه هي النهاية المرعبة التي يصل إليها هذا التعليم الذي يفرض بإصرار وبواسطة السلطان لا بواسطة التقليد مع أن السلطان الحقيقي الذي يخضع له كل أرثوذكسي هو سلطان التقليد لأن التقليد هو صوت الروح القدس.

أمَّا عن الروح القدس المتمايز بالحياة، فهو كان يجب عليه أن يتجسد لأن صفة الحياة خاصة به .. وبالتالي كان رد الحياة الأبدية يليق بالروح القدس لا بالابن المتجسد! وتجسد الروح

القدس يصبح ضرورة وإلاَّ كيف تعطى الحياة للجسد والنفس وهي متصلة بالعقل المتمايز عن الوجود والحياة .. فقد تجسد العقل ولم يتجسد الحياة .. وقد يقول هؤلاء: لكن الروح القدس يعطي الحياة من خلال الابن، ولكن الابن نفسه يقول: "ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويعطي" (يو ١٦: ١٤) ..

بل يقف العقل مبهوتاً وفي رعدة، فالابن الذي لا حياة فيه يأخذ الحياة من الروح القدس، وبالتالي إذا أصر هؤلاء على القول بأن الروح يعطي الحياة من خلال الابن قالوا ذات تجديف أريوس ونسطور بأن الابن نفسه احتاج إلى الخلاص وإلى عطية الحياة .. فكيف استطاع أن يخلصنا نحن الموتى وإذا فقد التجسد دوره الخاص بالابن المتجسد، وفقد الروح القدس دوره أيضاً؛ لأن الروح القدس جاء لكي ينقل إلينا من الابن المتجسد الحياة والخلاص والبنوة (غلا ٤: ٤-٦).

القسم الثاني

تمايز الصفات يقضي على التوحيد والتثليث معاً

-١-

لذلك ونحن نتبع الآباء ونرفض أن نجدد الإيمان الارثوذكسي نبدأ في الرد على هؤلاء من كلمات قانون الإيمان النيقاوي، وبشكل خاص الفقرة الخاصة بالابن له المجد.

"نور من نور. إله حق من إله حق. مولود غير مخلوق. مساوي للآب في الجوهر ..".

فالآب نور والابن من ذات النور، وهو إلهٌ من إله؛ لان كل صفات الإلوهة الوجود والعقل والحياة التي للآب هي صفاته أيضاً، وهو مولود من ذات جوهر الآب. وتعبير الولادة يعني المساواة حسب شرح القديس أثناسيوس الرسولي، وهو أكثر من تكلم عن ولادة الابن من الآب قبل كل الدهور، وولادة الابن تعني أن الابن له ذات صفات الوالد. والولادة هي حركة داخلية في الثالوث، حركة أزلية حسب قول القديس غريغوريوس الثيؤلوغوس .. فالابن يولد مثل النور ويحمل في داخله كل صفات الآب من حكمة وقدره وحياة وفكر، ولذلك إذا نطق أو تكلم كان الله هو المتكلم (عب ١: ١-٣) أو كان الآب الحال فيه هو أيضاً المتكلم والعامل به ومعه كل الأعمال التي أظهرها في تجسده.

وحسب كلمات قانون الإيمان، الصفة لا توصف بأنها نور من نور، ولا يمكن أن تكون صفة ذاتية أو جوهرية هي إلهٌ حق من إلهٍ حق، ولا يمكن أن يقال أيضاً إن صفةً ذاتيةً هي مساوية في الجوهر لصفة أخرى مثلها، فذاك يخص الفرد الواحد الذي فيه قد تتساوى الصفات في

العمل ولا يخص الله. ويظهر بكل وضوح هنا أننا إزاء تحديد خاص بالأقنوم الثاني وليس إزاء صفة من صفات جوهر اللاهوت.

-٢-

وتمايز الصفات جوهرية أو غير جوهرية، ذاتية أو غير ذاتية، إنما هو قضاء تام على وحدة الجوهر، أي قضاء على التوحيد نفسه، وهي النقطة التي حاول علماء العصور الوسطى من سريان وأقباط وروم إثباتها من فلسفة أرسطو .. ومع أنهم حاولوا بكل صدق وحسن نية الرد على النقد الإسلامي واثبات توحيد المسيحية، إلاَّ أن التوحيد الذي شرحوه لم يكن توحيد المسيحية، بل توحيد سابليوس.

-٣-

وما معنى تمايز الصفات؟ هو أن كل صفة تملك شيئاً خاصاً بها يميزها عن غيرها، أي أنها تختلف في العمل عن هذه الصفة مما يجعلها تتمايز، بل وتختلف عن الصفات الأخرى. فالعدالة صفة، والمحبة صفة أخرى، وعدالة الأرض تقتضي أن يعاقَب المخطئ وأن يكافأ البار، والمحبة تطلب الصفح ولا تتأخر عن مكافأة الخاطئ. هذا هو تمايز الصفات كما نراه في الخليقة، وكما يعمل في حياتنا الأرضية. وتمايز العدالة عن المحبة هو ضرورة وواجب اجتماعي يختلف البشر فيه، فهو واجب يحدد بشكل خاص نوع الهوية والشخصية الإنسانية.

وإذا انتقلنا بالحديث إلى الثالوث ووجدنا أن هؤلاء يشرحون الثالوث على أنه تمايز صفات في الجوهر الواحد أدركنا على الفور أن التوحيد نفسه بات في خطر، ونحن نعني هنا توحيد المسيحية لا توحيد الهراطقة مثل سابليوس وأريوس .. وسوف نشرح سمات توحيد المسيحية بعد ذلك ..

فإذا تمايز الوجود عن العقل وصار الوجود صفةً متمايزةً تملك شيئاً هو الوجود لا يملكه العقل، وأن هذا هو ما يميز الوجود عن العقل؛ لأدركنا على الفور أننا أمام التركيب في ذات الله، فالله موجود بشكل يتمايز فيه وجوده عن عقله. ذلك خاص بالماديات مثل الحجارة والمعادن حيث تنفرد الماديات والمعادن بالوجود كصفة للجوهر متمايزة عن العقل. وتمايز العقل عن الوجود يعني أن العقل يملك الفكر والفهم الذي يجعله متمايزاً عن صفة الوجود، وهذا ينطبق على جوهر الإنسان. فهو جوهر عاقل يشترك مع الخليقة في الوجود المادي أي الجسد، ولم يتورع فلاسفة اليونان عن رؤية الجسد الإنساني المكون من العناصر الأربعة على أنه جزء من الكون المادي – وهذا صحيح بشكل محدود – ولكنهم أضافوا إلى جوهر العقل في الإنسان صفة الحياة فقالوا بوجود نفس حيوانية ونباتية .. الخ.

وهكذا يظهر الله الخالق المختلف تماماً عن المخلوقات، وكأن له صفات المخلوقات مثل الإنسان، حيث يشترك مع المادة في صفة الوجود التي تتمايز عن صفة العقل، ومع الإنسان في صفة العقل، وبذلك نكون قد وصلنا إلى التركيب في ذات الله، وهو ما ما يجعل التوحيد بلا قيمة؛ لأن التعليم الرسولي الذي سمعناه من فم رب المجد نفسه هو إن الله روح (يوحنا ٤: ٢٤) وإنه روح بسيط بلا تركيب، ولكن بعد اشتراك الله في صفات المادة أو المعادن والإنسان تعين علينا أن نقول إن التوحيد نفسه ضاع؛ لان تمايز الصفات صادر عن فلسفة وجودية يونانية ترى الوجود والكينونة بشكل يختلف تماماً عن لاهوت الآباء النابع من الوحي، والذي نال أكبر دفعة بتجسد ابن الله وموته وقيامته ثم بانسكاب الروح القدس.

وقد ميز اليونانيون القدماء بين الصفات من أجل فهم الكون والإنسان لا من أجل فهم الله، فليس في الفلسفة اليونانية بحث أو موضوع عن الله، وإنما هو موضوع عرضي يبحث ضمن الموضوعات الفلسفية الأخرى، وإذا تدرج الوجود من المادة الكائنة إلى النبات، والحيوان الكائن الحي إلى الإنسان الكائن الحي العاقل، ثم أخذنا هذا السلم إلى اللاهوت المسيحي وجعلناه مدخل عقيدة الثالوث، ضاع علينا التوحيد؛ لان تمايز الصفات في فلسفة أرسطو إنما هو من أجل

تصنيف الكائنات لا من أجل فهم الثالوث. وإذا اشترك الله مع المخلوقات في صفات ذاتية، وصار مثل المخلوقات مركباً من صفات عرضية وأخرى جوهرية، سقط التوحيد، وعُدنا دون أن ندري إلى لاهوت أريوس (راجع الدفاع عن مجمع نيقية للقديس أثناسيوس فقرة ٢٢ من الترجمة الانجليزية ص ١٦٤ و ١٦٥) الذي رفضه الآباء.

– ٤ –

وقد يقول قائل إن حسن نية القائلين بوجود وعقل وحياة يجب أن يدخل في الحساب، وإننا لا ننكر حسن النية بالمرة، ولكننا عندما حذرنا من الخطأ اخترع بعض هؤلاء أخطاء وهمية ومنعونا من تدريس الآباء وخلقوا حولنا اتهامات باطلة .. غفر الله لهم.

ويبقى لكلمة الله القول الفصل في هذا التعليم الباطل، فالكتاب المقدس عبر صفحاته يقول لنا إن الله تكلم مع الآباء، وإن الآباء سمعوه يقول: "أنا الرب"، وهي عبارة نراها على كل صفحات الكتاب المقدس لا سيما في العهد الجديد. فالرب المتكلم لا يكون الآب ولا الروح القدس وإنما الابن وحده .. وهنا يسقط الخداع اللفظي الذي يغطي هرطقة سابليوس. كيف يتكلم الآب وهو لا يملك قدرة خاصة به تجعله قادراً على الكلام مع الآباء والأنبياء .. يقولون لقد تكلم في ابنه .. والعبارة صحيحة ولكنها مأخوذة وموضوعة في إطار غير الإطار الخاص بالمسيحية. فإذا قيل إن الآب تكلم أو نطق بالابن، فهذا يعني أن قدرة النطق هي له أيضاً وأنها هنا تظهر بوضوح وأنها أعلنت بواسطة الابن. هكذا شرح الآباء الإيمان .. ولكننا إزاء هذا التعليم الغريب يجب أن نسأل هؤلاء .. هل تكلم الآب أزلياً مع الابن؟ وهل يفهم كلاهما الآخر ويتحاور كلاهما مع الآخر؟ والجواب يأتي من تفاسير الآباء الذين فسروا صيغة الجمع المذكر السالم "ألوهيم" في أسفار العهد القديم على أنها حديث الثالوث .. أي حديث الآب والابن والروح القدس: "نخلق الإنسان على صورتنا"، وهنا يبرز الفرق بين الآب المتكلم مع الابن وبين الإنسان الذي يناجي ذاته، فالإنسان لا يخاطب وجوده ولا يرد الوجود عليه وإنما يخاطب ذاته الواحدة المنفردة، ويسمع صوت نفسه لا صوت آخر إلاَّ إذا تحاور مع إنسان آخر. وحديث الإنسان

الداخلي هو مناجاة أو تأمل يسمع فيها الإنسان صوته الباطني ويتحدث مع ذاته وذاته لا تجيب عليه إلاَّ إذا أصيب الإنسان بمرض الفصام وتحول إلى ما نعرفه في الأدب الانجليزي د. جيكل ومستر هايد. لكن حديث وحوار الثالوث هو حديث أقانيم حية عاقلة تملك القدرة العاقلة الخاصة بالجوهر وبالحياة الإلهية الواحدة.

فإذا قيل إن الآب يتكلم من خلال الابن، فليكن واضحاً أن المتكلم هو الآب، وأن الذي ينقل إلينا صوت الآب ورسالته هو الابن، وقد تكلم الآب في معمودية الابن المتجسد وشهد عن ابنه قائلاً: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، فهل كان يناجي نفسه أو يتأمل باطنياً .. إذا كان الآب يتكلم فعلاً والابن يسمع فإننا لسنا إزاء الفرد والاقنوم الواحد الذي يتكلم ويسمع نفسه ويحاول أن يرى نفسه ويفشل كثيراً، ونحن نقصد الرؤية الداخلية الحقيقية التي يرى فيها الإنسان حقيقة ذاته. وسر الفشل هو أن الإنسان الواحد هو الفاعل والفعل والمفعول به، فهو الذي يرى، وهو الذي يُرى. والذات تحاول أن تدرك نفسها وكثيراً ما تفشل، ولكن رب المجد يقول لنا عن الآب: "ليس أحد رأى الآب"، ثم هو رآه وسمعه وهذه ليست رؤية العقل لكيانه أو ذاته وإنما الأمر جد مختلف عن الإنسان، فالإنسان يظل دائماً اقنوماً واحداً حياً عاقلاً مختلفاً تماماً عن أقانيم الثالوث يحمل في ذاته الصورة والمثال التي لا تنطبق على الحقيقة وإنما تظهر فيها ملامح الأصل.

يقول الرسول بولس عن الروح القدس إنه يفحص كل شيء، وإنه يفحص بشكل خاص أعماق الله ويفهم ويدرك أسرار الآب والابن، فكيف يفحص الروح القدس أعماق وأسرار الله، ويفهم ويعلن ويتكلم عن هذه الأسرار، وهو في شرح هؤلاء، لا يملك القدرة العاقلة وإن شاء أن يفهم أو يدرك يحتاج إلى الابن القوة العاقلة .. إننا هنا إزاء ضياع كامل لكل ما تسلمناه وعرفناه من الآباء .. لقد ضاع التوحيد بالتركيب في ذات الله، وضاع الثالوث، لأن الأقانيم جعلوها صفات ذاتية أو جوهرية .. وماذا تبقى من الإيمان نفسه.

القسم الثالث

توحيد جوهر اللاهوت هو توحيد المسيحية

– ١ –

لا يحتاج التوحيد إلى وحي وإعلان إلهي، فقد أدرك البشر منذ وقت لآخر أن خالق السموات والأرض هو إله واحد لا شريك له، وجادت عقول الآباء بعدة براهين عن التوحيد كحقيقة ثابتة يمكن لأي إنسان على قدر من الذكاء أن يدركها، ولأي إنسان يرغب في صلة حقيقية مع الله أن يتوصل إليها، وسلمنا الآباء عدة براهين عقلية وردت عند اثيناغوراس في كتاب الدفاع عن المسيحية ثم استخدمها القديس أكليمنضس السكندري والعلامة أوريجينوس ثم عاد إليها القديس أثناسيوس الرسولي في كتابه "رسالة إلى الوثنيين" واستخدمها للرد على المانوية والغنوسية ودحض الشرك الغنوسي.

– ٢ –

فالتوحيد مسألة عقلية انشغل بها عقل الإنسان وبحثها وتوصل إليها بقدراته الخاصة، ولكن ما جاء به الوحي في العهد القديم هو الإعلان ليس عن الإله الواحد كما يفهمه العقلاء والأذكياء، وإنما عن الإله الحي والفادي والخالق والآب والراعي والطبيب .. الله الذي دخل حياة الإنسان وتكلم معه وقاده عبر ما يعرف بتاريخ الخلاص حيث أعطى الله العهد ثم الناموس على جبل سيناء.

ويأتي التوحيد في الوصايا العشر من خلال خبرة الخلاص، فالله يقول: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من ارض مصر من بيت العبودية"، فهو ليس مجرد إله واحد، وإنما هو إله واحد ومخلص، فالتوحيد خبرة خلاص من بيت العبودية، أي أنه ليس مجرد حقيقة عقلية جافة منفصلة عن تاريخ الإنسان وحياته ومصيره في الدنيا، ولكنه أي الله يدخل في هذه الحياة الإنسانية من باب الكلمة والفكر لكي يكلِّم الإنسان بواسطة الأنبياء، بل وينطق بشكل واضح في ضمير الإنسان؛ لكي يعلِّمه الخير وينهاه عن الشر، ثم يعود ويجدد شريعة النهي عن الشر والحض على الخير بواسطة الشريعة الأخلاقية التي أقام الأنبياء للدفاع عنها وتشجيع الأبرار على التمسك بها .. وحفر هذه الشريعة ليس في ضمير الإنسان فقط، بل على لوحي الحجر على جبل سيناء، وبعد الشريعة جاء أنبياء وأنبياء .. ولكن مجيء الأنبياء كان أولاً: لإعلان الخلاص في الزمان الحاضر. ثانياً: لوضع علامات ورموز عن الخلاص الآتي في عمل تام وأخير يعلن الله فيه عن حقيقة ذاته وعن العلاقة الأبدية التي جاء لكي يقدمها للإنسان.

-٣-

وهنا تفترق ديانات التوحيد ولا تتقابل الطرق .. حقيقي أننا جميعاً نعبد الإله الواحد .. لكن ما هي هذه العبادة؟ وما هو جوهرها؟ وماذا يمكن أن تقدمه العبادة في كل ديانات التوحيد؟ ذلك هو السؤال الحاسم الذي انشغل به الآباء وشرحوه بكفاية.

-٤-

وما هو الفرق بين مسيحي ويهودي كلاهما يؤمن بإله الآباء والأنبياء؟ ولماذا اعتبرت المسيحية أن توحيد اليهودية، وهو توحيد صحيح لا يكفي لفهم إنجيل المسيح؟ .. والجواب هو أن المسيحي يجد في التوحيد الوعد بالخلاص من خلال تاريخ الخلاص، ويجد في الثالوث الخلاص نفسه الذي تحقق ووُهِبَ. فالتوحيد وعدٌ؛ لأنه يعود دائماً إلى حديث عن أعمال الله، وكيف أنقذ الأبرار، وكيف نهى عن الشر، وشجع الإنسان وأمره بالخير .. والتوحيد وعدٌ بمجيء البركة الأمم

وبركة شعوب الأرض كلها في نسل إبراهيم .. وهنا ينتهي العهد القديم؛ لكي يبدأ الثالوث معلِنا لنا ظهور الابن في الجسد وإبادة الموت وإعلان القيامة .. وما تحقق بمجيء الابن لم يكن كلاماً فقط، بل أعمال وأحداث غيَّرت الكثير من نظرة الإنسان إلى الله. فقد عرف الإنسان الخوف والقوة .. ولكنه صار الآن يرى تواضع الله ومحبته. كان يخاف من العقاب، فصار يُدرك تودد الله بالمغفرة .. وصارت أحداث الخلاص أي التجسد والصلب والقيامة عناصر وركائز نظرة جديدة لعلاقة جديدة لم يعد جوهرها الشريعة الأخلاقية القديمة، ولكن صار جوهرها شريعة حياة جديدة تفوق الشريعة القديمة. كان القتل هو سفك الدم .. وكان الإنسان قبل تجسد الابن يفهم ذلك بشكل سليم .. ولكن بعد تجسد الابن صارت الكراهية والبغضة هي القتل؛ لان شريعة الحياة لا تكتفي فقط بالكشف عن جذر الشر في قلب الإنسان، وهو البغضة والعداوة، ولكنها تقول للإنسان إن الله محبة، وإن مَن لا يعرف المحبة لا يعرف الله .. فليس التفوق الخلقي هو غاية المسيحية، وإنما معرفة الله والتشبُّه به، وهو ما يجعل التفوق الخلقي أقل بكثير من العلاقة المباشرة والحقيقية مع الله.

— ٥ —

ومعرفتنا بالله ليست مجرد نفي للشِّرك، وليست صرخة التوحيد وهي صرخة حق هي نهاية المطاف، وإنما التشبُّه به والتمثل بسلوكه معنا، وهو ما نراه ليس فقط في الصلاة الربانية، بل في كل تعاليم المسيح، وبشكل خاص في العظة على الجبل .. يقول رب المجد لنا: "إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم .." وهنا نرى أن المغفرة هي تشبُّهٌ بالله وليست مجرد وصية أخلاقية عامة يمكن للإنسان أن يتركها أو يرفضها .. الله يعطي لنا أن نتشبَّه به ليس لفظياً وكلامياً .. بل لقد غفر لنا عندما مد يديه على الصليب وصالح الكل، حتى الذين صلبوه قال عنهم: "اغفر لهم".

-٦-

والسلوك والتشبُّه بالله هو بذرة الإيمان بالله في العظة على الجبل. ولو سألنا المسيح ما هي أهم قطعة عن الثالوث في وعظك؟ لقال العظة على الجبل .. فالآب يغفر ويحب الأعداء ويخدم احتياجات الإنسان كلها .. وأخيراً يريد الآب أن يعطي ملكوت السموات أي أن يكون كل إنسان ملكاً .. ويقدِّم لنا الآبُ النموذج عن حياة هذا الملك .. وهو يسوع المسيح .. ويجدد يسوع المسيح حياة الإنسانية، ويرفعها فوق كل مستويات العرقية والتعصب الديني والقومي والمذهبي .. وهل كان مَثَلُ السامري الصالح إلاَّ ضربةً قويةً هدمت تحجر يهود هذا الزمان، فمن هو القريب؟ الذي صنع المعروف .. فالسلوك هو أساس التمييز، وليس الكلام وحده، وتلك قضية ظاهرة بوضوح في صورة يوم الدينونة حيث نرى زيارة المرضى وتقديم الكساء للعريان وافتقاد المساجين .. الخ، كلها أعمال الرحمة والمحبة .. والغريب، وما هو جدير بالاعتبار هو أن كل هذه الأعمال يقال عنها بكل وضوح إنها قدِّمت وتمت مع المسيح نفسه .. فهو العريان والمريض والسجين والجائع والعطشان .. الخ، كيف؟ الجواب لأنه هو الملك والإنسان، وهو الذي جاء لكي يلتصق بكل إنسان وبكل الجنس البشري ويقوده إلى التشبه به وبالآب.

-٧-

ذلك هو جوهر الإنجيل: "أحبوا أعدائكم"؛ لأن الله يحب أعداؤه. "باركوا لاعنيكم"؛ لأن الله بارك ويبارك الذين يلعنوه .. "أحسنوا إلى مبغضيكم"؛ لأن الله أحسن ويحسن، ليس فقط بإشراق الشمس ونزول الأمطار، بل برعاية مباشرة منه لكل إنسان .. ويبقى السؤال الذي قدَّمناه ورأيناه واضحاً عبر صفحات تاريخ الكنيسة، لماذا تبدو قضية السلوك هامة إلى هذا الحد؟ .. لان التجسد سلوك، والصليب سلوك، والقيامة سلوك، وعمل الروح القدس في التقديس سلوك. وهنا لا نعني الأعمال الصالحة، وإنما التجسد سلوكٌ؛ لأنه تواضع حقيقي. والصليب سلوكٌ؛ لأنه آية الغفران. والقيامة سلوكٌ؛ لأنها عطية حياة. وعمل الروح القدس سلوكٌ؛ لأنه رغم قداسته التامة،

يسكن في قلوب البشر النجسة .. هذا هو ما جعل الكلام والأقوال والسلوك والإيمان والعقيدة والعبادة من صلوات وأصوام وأسرار كنسيّة، وحدة واحدة لا تقبل الانقسام.

-٨-

فالعبادة تشبُّهٌ بالله "أغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا". والصوم تشبُّهٌ بالله: "إن كنت ابن الله، فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً"، ويجيء الرد: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله يحيا الإنسان" .. تشبُّهٌ بمن تجسد، وتشبُّهٌ بمن أرسل الابن أي بالآب، وتشبُّهٌ بمن يقبل السكنى فينا، أي بالروح القدس.

-٩-

والصلاة وكلمة الله والأسرار كلها صادرة ونابعة من الله نفسه. نعم من الله، وبشكل مباشر. فهو الآب، ولأنه فعلاً الآب نقول له: "أبَّا"، والحديث مع الله هو حديثٌ مع الثالوث؛ لأننا نصلي ونسأل باسم الابن الوحيد، ويعين الروح القدس عدم قدرتنا على الصلاة، ولذلك يأتي الروح القدس ليطرد روح الخوف والعبودية ويعطي الإنسان أن يقول: "أبَّا" (غلا ٤: ٤) .. وكلمة الله في الكتاب المقدس والأسرار والكنيسة هي وحدة واحدة، فالإنسان الذي يتعلم أن الله هو الآب، هو الذي يعتمد باسم الآب. والإنسان الذي يقرأ حياة المسيح في الأناجيل هو ذاته الذي يأكل جسد المسيح. والإنسان الذي يقرأ عن عمل الروح القدس في الأنبياء هو ذاته الذي يقبل الروح القدس. لا فصل ولا فجوة بين الكلام والأعمال، وبين الوحي والأسرار والشريعة وواضع الشريعة ..

وهنا نقول مرةً ثانيةً، تفترق طرق ديانات التوحيد .. فالإنسان الذي كان يصلي في العهد القديم، كان يسمع عن الروح القدس، ويقرأ عن الروح القدس، وكان الروح يعمل في أشخاص الأنبياء والملوك فقط، وكان يقيم القضاة وأحياناً الكهنة لعمل خاص، ويحرك الأبطال والقيادات .. ولكن الإنسان في العهد الجديد هو هيكل للروح القدس .. وضمانة هذه الحقيقة

ليست في أقوال فقط، وإنما في هيكل الابن الكلمة الذي كوَّنه الروح القدس من العذراء ومسحه في معمودية الأردن ..

وكان الإنسان يرتل في المزامير: "لأن إلى الأبد رحمته"، .. ولكن الرحمة صارت ظاهرة بشكل واضح؛ لأن الإنسان دخل ليس إلى ارض الموعد، وإنما إلى ملكوت السموات .. وتبقى كل هذه المسائل ظاهرة، فكل ما قيل شفوياً أو لفظياً أو نبوياً وُهِبَ وأُعطى في الحقيقة وفي الواقع، أي تحوَّل اللفظ إلى حقيقة، وصارت الكلمات حياة، وهو ما جعل رب المجد يقول: "الكلام الذي أقوله لكم هو روح وحياة" .. فقد عبرت مرحلة اللفظ فقط؛ لأن المواعيد وهي كلمات صارت محفورة الآن في جسد المسيح ومضمونة بالدم ويعمل الروح القدس .. وأين؟ في جسد ولحم وروح الإنسان. فالتجسد والصلب والقيامة والعنصرة هي أعمال الله التي تتجه نحو الإنسان.

-١٠-

وعندما تحولت الكلمات إلى أفعال وتحققت المواعيد في ربنا يسوع المسيح، تحول التوحيد من مجرد نهي عن الشرك إلى إعلان عن كمال المحبة، فصار الإله الواحد هو ينبوع المحبة الواحدة الحقيقية. كان الأنبياء قد قدَّموا لنا عدة أمثلة من واقع الحياة الإنسانية عن وحدانية الله، فهو الراعي الواحد الصالح، وهو الآب الواحد، وهو الصخرة .. وهو يوصف بأوصاف كثيرة مشتقة من كلمات ومفردات اللغة البشرية، وهذا هو تنازل إلهي حقيقي جعل الكلام عن الله حديثاً سهلاً مقبولاً لدى الله لأنه تنازل إلى مستوى الإنسان، ومقبولاً لدى الإنسان لأنه استطاع أن يرى حتى في الحياة اليومية صوراً ومعاني ورموز عن الله، فهو مثل النار ويختفي في الضباب أو السحاب؛ لأن خبرة الإنسان تؤكد له أن الله لا يقع تحت الفحص البشري، ولكن أهم ما جاءت به اليهودية هو أن الله قدوس، أي أنه فريدٌ لا مثيل له، ولا يمكن أن يشبَّه بما في دنيا الإنسان. إن قداسة الله، أي انفراده بالإلوهة هو فوق إدراك الإنسان .. وكانت قداسة الله تطلب وتعني أن يخصص الإنسان نفسه لله وأن يعبده دون سواه. ولم يتوقف الأمر عند القداسة، بل أعلن الله عن

فساد الضمير البشري وقدَّم لنا في سفر هوشع المثال عن خيانة شعبه وعدم الوفاء، وأخذ من واقع الزواج نفسه صوراً ومثالاً للزوج الوفي أي الله الذي يعود إلى زوجته الزانية لكي يرفع عنها عار الخيانة أي الشعب، ومع أن عقوبة الزنا كانت القتل رجماً .. إلا أن النبي هوشع يعلن بشكل مباشر عن غفران الله .. ويأتي ابن الله لكي يقول أمام القضاة وحراس الشريعة، وأمام المرأة الزانية: "من كان منكم بلا خطية فليكن أول من يرمي الحجر الأول"..

كانت خيانة الشعب هي الوثنية .. وكانت الوثنية تحتاج إلى جرعة إلهية من المحبة الحقيقية التي تغسل وجدان الإنسان من جريمة الوثنية، لا لكي تكسر الأوثان فقط، بل لكي تخلع من الضمير البشري القسوة وعبادة الناس وعبادة المال لكي يمكن لمن يتحرر أن يكون ملكاً في ملكوت المسيح، فالملك لا يمكن أن يكون عبداً لربٍ آخر غير الذي يعطي له الملكوت. ودخل التوحيد في أدق ثنايا الضمير الإنساني الذي صار بالروح القدس يفتش عن الأوثان الداخلية، تلك التي لا تُرى بالعين ويحس بها القلب، الأوثان القابعة في داخل الفكر الملتوي الذي يقول: "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد"، ولكنه في ذات الوقت يخدم آلهةً أخرى.

-١١-

كيف يدخل التوحيد ثنايا الوجدان والضمير، إذا توقف التوحيد عند النهي عن الشرك، وعند عبارة: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي"؟ ذلك أن الآلهة حسب الخبرة القديمة هي الأوثان .. ومتى أزال الإنسان الأوثان ظن أنه أدرك الإيمان الصحيح، لكن الله يقف أمام الإنسان وجهاً لوجه، ويقف لكي يعلن عن رغبته في أن يعطي الإنسان حرية اكبر وأعظم، وهي أن لا يكون هيكل وقدس من الحجر فقط، بل أن يكون الإنسان نفسه هو هيكل الله ..

ويتوقف الفكر لكي يتأمل كيف حدثت هذه النقلة الهائلة من عبادة في هياكل من حجر إلى عبادة في هياكل من لحم ودم؟ وعندما يتحول الإنسان إلى هيكل ويصبح اللحم والدم هو قدس الأقداس، يصبح من الواضح أن كل ما يحدث للبشر، إنما يقع على المسيح، فهو الإله الذي سكن في هيكل بشري لكي يسكن الله بعد ذلك في البشرية حسب وعده الإلهي في أرميا ص ٣١ ويدخل

التوحيد مرحلة رؤية جديرة .. فالإنسان قريبٌ جداً من الله طالما هو (أي الله) قريب من قلبه، أي قلب الإنسان، فالله في الداخل والتوحيد هو رؤية داخلية لحقيقة الله وحقيقة سكناه فينا.

-١٢-

ونعود إلى الكلام والأعمال أو اللفظ والكينونة .. فالله الواحد هو لفظ طالما أن الأمر ينهي عن الشرك وعبادة الأوثان .. وهذه حقيقة هامة، ولكن الحق لا يقف عند علاج الخطأ. فالحق الذي يكتفي بعلاج الخطأ ولا يقدِّم الصواب نفسه هو حقٌ غير كامل ..

التوحيد هنا يصل إلى أعماق الوجدان الإنساني في قول الرب: "أنا والآب واحد". فالتوحيد هو "وحدة"، والنقلة هنا هي نقلة مصدرها كينونة الله، قبل أن يكون مصدرها اللفظ الجديد. فـ"الواحد" و"الوحدة" هما اتجاهان مختلفان تماماً .. ذلك أن الواحد وحده هو حقيقة لفظية فقط لا وجود لها في الواقع، فالكون كله واحد، ولكنه أيضاً من أجزاء، فهو وحدة. والإنسان أعضاء وقدرات، وهو وحدة. وكل ما يمكن أن يقال عنه إنه واحد هو في حقيقة الأمر وحدة. والله واحد ولكنه في حقيقة الأمر هو وحدة؛ لأنه روحٌ، ولأنه عاقلٌ ناطق، ولأنه يجمع في داخله صفات كثيرة لا تؤدي إلى الفصل أو الانقسام أو العراك .. هو الوحدة الحقيقية التي على مثالها خُلِقَت كل وحدة، وعلى أساس التشبُّه بالله نصل إلى الوحدة. وتصبح هنا الوحدة ليست مجرد فكرة، فقد انتهى عصر اللفظ والكلام، ودخلنا في عصر اللفظ والكلام والعمل .. وما لدينا من برنامج قديم مدون في كتب الأنبياء، صار الآن حقيقةً وممارسةً وسلوكاً. فالله وحدة؛ لأنه آب يريد أن يعطي الملكوت، وابن يعلن الملكوت في شخصه، وروحٌ قدس يهب هذا الملكوت .. فالملكوت نفسه وحدة .. ويدرك الأنبا أرسانيوس هذه الحقيقة في عبارة موجزة تجمع تاريخ العقائد كله: "إن ربوة من الملائكة لهم إرادة واحدة، وإنسان واحد له ربوة من الرغبات والإرادات". فالوحدة ليست في العدد ولا في الكم، ولكنها وحدة نوعية .. هي الانسجام مع الغير، وذلك الانسجام بالعمل وبالتنازل .. فالتواضع ليس مجرد تنازل ولكنه سند الوحدة .. والقداسة ليست السلوك الأخلاقي الجيد فقط، ولكنها دعامة المحبة أيضاً .. وصار كل شيء يتجه نحو غاية

جديدة هي المحبة .. وجاء القول الأخير الذي يجُبُّ كل حديث سابق عن الله: "الله محبة"، بل يجعل كل حديث لاحق عن الله هو مجرد تفسير .. لقد كان أهم ما أُعلن في يسوع المسيح أن الله محبة، وأن هذه المحبة قائمة بالوحدة ..

فالتوحيد المسيحي هو توحيد محبة. إنه لا يقف عند النهي عن الشرك وتعدد الآلهة .. فالمحبة لا تعالج الخطأ فقط، وإنما تجود بالحق وبالحياة وتعطي ما يمنع العودة إلى المرض.

-١٣-

ويقول الراعي الصالح ربنا يسوع المسيح: "الذي رآني فقد رأى الآب"، وهنا المحبة هي جوهر هذا الكلام. فالمحبة تقبل بالتفويض وتقبل بأن ينوب شخصٌ عن آخر أو أن يتكلم شخصٌ باسم آخر .. المحبة تقبل هذا التفويض؛ لان المحبة هي قلب الوحدة وجوهرها. فالآب حالٌ في الابن، والابن حالٌ في الروح .. هذا الحلول المتبادل يجعل أي واحد من الأقانيم الثلاثة قادر على أن يتكلم باسم الأقنومين الآخرين .. وتجيء عطية البنوة باسم الآب والابن الروح القدس (مت ٢٨: ١٩) .. وتجيء عطية الحياة الأبدية في ملكوت السموات عطية واحدة، ينظر الإنسان إلى مصدرها وإلى الإعلان عنها وإلى نوالها فيجد أن الآب هو المصدر، وأن الابن أعلن عنها وكشفها، وأن الروح القدس يعطيها .. حركة مثلثة ولكن هبة واحدة ..

-١٤-

وتوحيد المحبة يعلو على كل كلمات اللغة البشرية .. ولذلك صار الله يوصف بأنه السر، وصار المسيح هو تجسد هذا السر، وصار الروح القدس هو القوة المحركة التي تحقق هذا السر سرياً *Mystical*، والنقلة ليست لفظية فقط، بل كيانية؛ لان الله الساكن في ثنايا الضمير والقلب، يسكن بشكل سري يعرفه الإنسان ويراقبه ويفهمه ويجد ذاته في اغلب الأوقات غير قادر على التعبير عنه.

والمحبة هي أيضاً قلب هذا السر. لماذا العطاء، ولماذا التنازل، ولماذا العناء؟ لماذا الصفح

دون مقابل .. لماذا يعطي الله الملكوت؟ بل قبل كل شيء آخر لماذا خلق الله الإنسان؟ .. ويصارع العقل مع الأفكار والتقاليد والعقائد، ليصل في نهاية الأمر إلى أن وراء كل ذلك سر كبير اسمه المحبة .. وأن المحبة هي محبة واحدة فريدة لا مثيل لها، وأن مصدرها لا يمكن أن يكون إلاَّ ذاك الذي غرس هذه الحقيقة في قلب الإنسان وفي وجدانه ..

وكيف يمكن أن تلتحم محبة الإنسان بمحبة الله؟ .. كيف تحدث هذه الوحدة، وما هي الجهود الإنسانية والأفكار الإنسانية التي يمكنها أن تحقق ذلك .. والجواب لقد أعطت محبة الله كل شيء مجاناً، وأعطت ليس النموذج فقط، بل التطبيق أيضاً ومنحت للإنسان أن يختبر ذلك في علاقته بالله وفي علاقته بالبشر، فالمحبة وحدة، والمحبة واحدة، وما يحدث على صعيد العلاقة الفردية والشخصية بين الله والإنسان الفرد الواحد، إنما هو مؤشر دون شك في علاقة هذا الفرد بغيره وفي وحدته مع باقي البشر.

-١٥-

والمحبةُ معلنةٌ في نموذج كامل وتام له حياته الخاصة به وله مصدره الخاص به من محبة، هذا النموذج هو الثالوث الذي منه هو تُخلق كل مصادر المحبة، فهو أشبه بالقلب أو مركز الدائرة .. الكل يأخذ منه .. ولكن ذلك النموذج يحتوي على التطبيق أيضاً .. لأنه لا ينقل إلى الإنسان مشروعاً لفظياً فقط أو صورةً جميلةً بعيدة المنال، ولكن المحبة تمد يدها لتأخذ بيد الإنسان لكي يدخل دائرة المحبة ولا يقف مثل متفرج ..

ويغتسل الإنسان من العزلة ومن الأنانية في المعمودية .. يغتسل لكي ينضم في وحدة إلى غيره، وتخلق المعمودية رابطة محبة تسمى بعدة أسماء منها الجماعة والكنيسة و"جسد المسيح الواحد" وهذه أسماء جديدة وصياغات جديدة لا يمكن أن نجدها بألفاظها في العهد القديم، ولكن يمكن أن نراها رموزاً في نبوات الأنبياء .. ويكفي أن نقرأ قصة خلق آدم ثم خلق حواء من جنب آدم .. هذه قصة نبوية عن ميلاد الكنيسة .. "وتصبح هذه عظم من عظامي ولحم من

لحمي" ليست عن زواج آدم وحواء فقط، ولكن عن زواج الرب بالكنيسة (أفسس ص ٥)، فالسر لا يقف عند ما تقدمه الطبيعة البشرية، بل يرتفع إلى مصدر السر أي الله، والسر هو تنازل إلهي، والمحبة إذا تنازلت قدَّمت كل شيء حتى ذاتها، وإذا تنازل الله فهو يتنازل لكي يرفع الساقط، ولم يكن الساقط إلاَّ العلاقة الزوجية التي سيطر عليها العنف وسوء استخدام الجسد .. الخ، هذه غُسِلت في بحر المحبة الكبير؛ لكي ترتفع إلى مستوى أداء جديد يأخذ قوته من اتحاد الرب بالجماعة. ذلك هو "السر الكبير" الذي لا يمكن إلاَّ أن يصبح سر الرب والفرد، فكل فرد غطس في مياه المعمودية وخرج مصلوباً وحياً مناضلاً من أجل الحياة الجديدة، قد سبق واتحد بالمسيح ومُسِحَ معه وبه، وما المعمودية والمسحة إلاَّ باب الدخول إلى الكنيسة .. فالحقيقة هنا كيانية، والإنسان ينال كينونة جديدة، فهو مصلوب مع المسيح وقائم مع المسيح ومعه كل المصلوبين، أي الجماعة.

المعمودية هي شركة الكل في موت المسيح وقيامته، وهي وإن كانت تُعطى لكل فرد على حدة إلاَّ أنها تجعل جميع الأفراد واحداً، وهنا الوحدة تُخلق من خلال المسيح الواحد لكي تصبح الوحدة توحيداً، وكم نبغ الأقباط في فهم سر المسيح وانفردوا بتعبير لا نجده في القداسات الأخرى، فالكنيسة تسمى "الواحدة الوحيدة"، والكنيسة الواحدة هي وحدة، وهي صورة تتجمع خيوطها وألوانها من المعمودية والمسحة ومن سر الإفخارستيا وترتفع إلى مكانة فريدة، فهي أيقونة الثالوث، وكلمة "الوحيدة" مأخوذة من إحدى صفات الابن الوحيد .. لذلك، عروسه مثله هي ليست واحدة فقط، بل وحيدة أيضاً.

-١٦-

وتوحيد المحبة توحيدٌ عملي يمارَس قبل أن يُعلن لغوياً ولفظياً، وحكمة الإنجيل نراها في عبارة واحدة: "لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق". والكلام واللسان هو الوحي، والعمل والحق هو التجسد وحلول روح الحق، والعمل حركة والحق كمال هذه الحركة. وعمل الله هو حركة دائمة .. كان الآباء منذ زمن ثيؤفيلس الأنطاكي يفهمون أن كلمة ΘΕΟΣ هي كلمة

مشتقة من كلمة يونانية أخرى تعني حركة .. والحركة هي حركة داخلية، ولذلك الخلق حركة أو عمل، والخلاص حركة أو عمل، والحركة نابعة من إرادة وقوة الله التي لا تُدرَك، ولكننا نرى آثارها. والخلق عمل الإرادة والقوة، لكن الخلاص لا يتوقف عند الإرادة والقوة .. الخلاص حركة محبة .. وهنا يخلق الله ويخلِّص بعد ذلك، فالعمل والحركة تسير نحو الكمال، نحو الخلاص .. والخلق بالإرادة حركة، ولكن الخلاص هو بالاتحاد ..

والخلاص يعلن لنا توحيد المحبة، فهو توحيدٌ خاص لأنه توحيد لوحدة الثالوث .. وتظهر المحبة بشكل مختلف عن كل أحلام البشر .. فالله أو اللاهوت هو كل ما يشترك فيه الأقانيم، الجوهر عام وشركة مشاع، والأقنوم خاص ومتميز، والتوحيد هنا هو ما يشترك فيه الثالوث أي الجوهر أو صفات الله، وهو عام حتى أن كل واحد من الثلاثة يملكه كله دون أن تقتصر صفات الجوهر على أقنوم دون آخر .. ولكن التثليث هو كيان خاص أو وجود متمايز حسب تعبير القديس باسيليوس في رسالته ٣٨ إلى غريغوريوس النيسي، هو كيان خاص اسمه الآب، والاسم أو اللفظ حقيقة كيانية، وكيان خاص اسمه الابن والاسم واللفظ هو أيضاً حقيقية كيانية .. وكذلك الروح القدس .. لكن ذلك الكيان الخاص هو مشتركٌ في كل شيء وله كل شيء ولا يختلف عن الأقنومين الآخرين إلاَّ بما يتميز به .. أي الأبوة والبنوة والانبثاق، فكل صفات الله هي في الآب وفي الابن وفي الروح القدس واحدة لا تمايز بينها .. ولكن الأبوة خاصة بالآب، والبنوة خاصة بالابن، والانبثاق خاصٌ بالروح القدس .. وفي الغرب استبدل القديس هيلاري، ثم القديس أوغسطينوس كلمة "الانبثاق" بكلمة "العطية"، فصار الآب أبوة، والابن بنوة، والروح القدس عطية .. وحجة الغرب أن العطية اسم أزلي، وبالتالي ما هو عام ومشترك ومشاع هو الحياة الإلهية نفسها وهو الوجود والعقل والحياة والإرادة .. لكن هذه الحياة فيها أعضاء معينة ذات وجود خاص وتمارس وظيفة معينة .. لكن أهم ما يميز التوحيد هو أنه يقدِّم من خلال نماذج أخرى .. نماذج أقامها الرب وشيَّدها في الكنيسة لكي تعكس مثل مرآة دور الوحدة والتمايز ..

كانت الخليقة كلها مرآة هذه الوحدة .. وكان الزواج الأول مرآة هذه الوحدة .. فآدم

وحواء جسد واحد .. ولكن ضياع وغياب معرفة الإنسان بالله جعل هذه الوحدة تتفتت .. ولكن جاءت رسالة الوحدة الجديدة، وجاء الله ليكون أمام الإنسان وجهاً لوجه .. فوُلِدت كلمة أقنوم أو *Persopon* وتعني الوجه .. رأى الإنسان الوحدة أمامه في التجسد وفي العنصرة .. ورأى الإنسان الاتحاد في شكله وقوامه الكامل في المسيح .. وذلك السر الذي استغرقت صياغته ما يزيد على ٤٠٠ سنة امتدت من قبل المجمع النيقاوي ٣٢٥ حتى المجمع المسكوني الثالث ٤٣١. صراعٌ كان يهدف إلى الاحتفاظ بالاتحاد؛ لأن ضياع الاتحاد يهدد ما هو مؤهِّل للوحدة .. أي المعمودية .. الإفخارستيا .. الكنيسة .. الزيجة .. وتحت كل سر من هذه الأسرار نجد ذات الحقيقة السابقة .. ما هو عام ومشترك .. وما هو متمايز وخاص. فالمسيح المصلوب والحي هو عام ومشترك، هو الوسيط الوحيد الذي يجمع كل الذين ينالون المعمودية .. ولكن لكل مؤمن وجود وكيان متمايز في المسيح ليس فقط بسبب المواهب الروحية، ولكن أيضاً بسبب النمو الروحي. وفي الإفخارستيا الكل يأخذ الجسد والدم .. هذا هو ما يعرف قديماً بالشركة .. السِّرُ عامٌ وقوة الاتحاد وثماره تتمايز، والكنيسة هي جسد المسيح .. هذا عام ومشترك، ولكن كما قال الرسول بولس ١ كو ص ١٢ – ص ١٤ .. كل فرد هو عضو خاص، والزيجة جسد واحد، أي حياة عامة مشتركة .. ويبقى الرجل رجلاً والمرأة امرأة .. وهذا تمايز في وحدة، وكل هذه النماذج تأخذ قوتها من الثالوث وتتشبه به وتحاول أن تتحرك به نحوه وتسير من حركة إلى حركة نحو كمال المحبة.

ونصل إلى أخطر ما يقال عن التوحيد .. فهو نموذج وحدة، وهو وحدة محبة .. ولأن التوحيد هو وحدة، فالمعمودية واحدة، والإفخارستيا واحدة، والكنيسة واحدة .. وقديماً قبل الانهيار الخلقي وحتى زمن العلامة أوريجينوس كانت الزيجة واحدة، أي مرة واحدة، والزواج الثاني لا زال له وضعٌ خاص حتى بعد الانهيار .. فالتوحيد ليس قضية فكرية يتأملها الإنسان بعقله، وإنما التوحيد قضية حياة أو موت، قضية عزلة الشر والخطية، أو شركة الحياة .. التوحيد هو أن نعود إلى الوحدة ليس لفظياً، وإنما حقيقةً .. والتوحيد حركة في الله، حركة عطاء كل شيء من كل

أقنوم للآخر، وحركة محبة. فالآب والابن والروح القدس في حركة محبة .. وحركة المحبة تحفظ التمايز، بل تنبع من التمايز .. ونحن البشر نخاف التمايز؛ لأن التمايز هو تقديسٌ للحرية .. والحرية تخيف العبيد، لكن تمايز الأقانيم هو حركة المحبة الأزلية، لأن المحبة تقتضي وجود ثالوث حسب شرح أوغسطينوس: المحب والمحبوب والحب .. والمحبة توحيد فريد لا يُفهم إلا من خلال المحبة التي تعطي التبني والتقديس.

+ + +